العدد الخامس / السنة الثانية / (أكتوبر - ديسمبر) 2006

حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com




حراء
هو ﷺ فوق الوصف قاطبة من حيث جوهره ومكانته،
فريد الكون والزمان بأعماقه الأخروية،
وضياؤه لهجت به الألسن قبل وجوده،
فهو باني الإنسانية من جديد، وقدومُه إحسان للإنسانية جمعاء...
ISSN-1306-1879
9 771306 187009 05
www.hiramagazine.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنسان والعالَم

العلاقة الجدلية بين العالم والإنسان علاقة تفكرية بالأساس. عالم قبالتنا يصدمنا بحدّة فيكون ردُّ فعلنا على فعله استنهاضًا لقوانا الذهنية للتفكر به، والكشف عن مستوره، وتفسير أحاجيه. ومن بين هذا الفعل وردّ الفعل تنهض الحضارات وتقوم المدنيات وتزدهر الثقافات ممّا يدل على أن قوى الإنسان الواعية لا زالت على أشدّها لم تُصَبْ بالإرهاق والعقم.

فلا يمكن التصور للحظة واحدة عالم من دون إنسان، أو وجود إنسان من دون عالم، ونجد مصداق هذه الحقيقة في ثقافتنا القرآنية والسنّية. ومن هنا جاءت مقالات هذا العدد من "حراء" تدور حول الإنسان والعالم والإتيان بالشواهد على هذه العلاقة الجدلية بينهما كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

ومن أبرز هذه الشواهد وأعظمها "محمد" ﷺ الذي تألق قلم الأستاذ فتح الله بالكلام عنه من حيث كونه مفسِّرًا للعالم وشارحًا لمغزى الوجود ومعنى الإنسان. فمقاله يروي الظماء، ويسقي العطاش، إنه يستقي من ينبوع سماوي ثَرٍّ فتنهال عليه الأفكار، وتتداعى عليه المعاني ويتحول قلمه بين أنامله إلى عمود نوراني مغموس برحيق كوني عذب المذاق، فيوقظ عين الزمن عليه، ويملأ كؤوس المعارف بشراب رسالته.

أمّا الأستاذ الدكتور أحمد العبّادي فيردف مقالا آخر يبين فيه مهمة التعامل مع آثار النبوة في الفرد والمجتمع. وللأستاذ الكبير د. محمد سعيد رمضان البوطي كلام عن الوهج الروحي في حياة الأستاذ "سعيد النورسي"، إضافة إلى الأستاذ الدكتور عبد الحليم عويس الذي يكتب عن الهجرة من حيث كونها مشروعًا لبناء حضارة إيمانية جديدة. وأما الأستاذ الفاضل أديب الدباغ فيكتب في مقاله "الضاربون في الأرض" عن أولئك الفتيان ذوي الهمم العالية وهم يسيحون في الأرض حاملين شعلة الإيمان إلى كل مكان من هذا العالم. وقد أتحفنا الأستاذ زغلول النجار بأحد مقالاته عن إعجازية الليل والنهار ودلالات هذه الإعجازية في القرآن الكريم. وفي الشخصيات الإسلامية يحدثنا الأستاذ الدكتور عمّار جيدل عن ريادة المفكر الإسلامي شيخ الإسلام مصطفى صبري. أما عن المسافة بين "دايتون" الأمريكية و"أبنت" التركية وعما يشتركان فيه ويختلفان، فكان في مقال للأستاذ الدكتور إبراهيم البيومي غانم.

فمن خلال ما توحي به مقالات هذا العدد من "حراء" نستطيع التوكيد على حقيقة كون الإنسان والعالم يشكلان وحدة واحدة مثيرة لاهتمامات المفكرين الجادين في كل وقت. فما زال العالم يدور في دواخلنا مولدًا فيها أعظم الخواطر والأفكار، وما زال العالم كتابًا مغلقًا في حاجة إلى المزيد من القراءة والتصفح، وما زال القرآن والسنة يمداننا بالمساعدة على تحمل معاناة فهم العالم وإدراك مقاصده وغاياته، ولا زال الذكاء البشري في حاجة إلى "الوحي" ليوجه خطاه ويصحح خطأه، ويحدوه في رحلته الصعبة الطويلة غير المتناهية. ■



العدد الخامس – السنة الثانية (أكتوبر – ديسمبر) 2006

التصور العام

• حراء مجلة علمية ثقافية فصلية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
• تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
• تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
• تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

• أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
• ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
• يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
• تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
• المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
• تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
• النصوص التي تنشر في المجلة تعبّر عن آراء كُتّابها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة.
• للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
• مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

مجلة علمية ثقافية فصلية تصدر عن:
Işık Özel Eğitim Tic. Ltd. Şti.
İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز
أنس أركنه
mergene@hiramagazine.com

المشرف العام
نوزاد صواش
nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير المسؤول
حسام الدين السيد
hosam@hiramagazine.com

مدير التحرير
أشرف أونن
eonen@hiramagazine.com

المخرج الفني
مراد عرباجي
marabaci@hiramagazine.com

المركز الرئيس
HİRA MAGAZİNE
Emniyet Mah. Huzur Sok.
No:5 34676 Üsküdar
İstanbul / Turkey
Phone: +902163186011
Fax: +902163184202
hira@hiramagazine.com

الإشتراكات/مركز التوزيع
٧ ش البرامكة – الحي السابع – م.نصر/القاهرة
تليفون وفاكس: 2022619204+
المحمول: 20127874552+
جمهورية مصر العربية
sub@hiramagazine.com

الطباعة
Çağlayan Matbaası
İzmir- Türkiye
Tel: +90 (232) 252 20 96

رقم الإيداع
١٨٧٩-١٣٠٦

المحتويات





فتح الله گولن

القول الفصل الأخير حول حقيقة "الله والكون والإنسان" هو لحضرة محمد ﷺ الذي هو شجرة الوجود، والعلة الغائية لكتاب الكائنات، وأقوى صوت للدعوة إلى الحق تعالى... إنه هو المُخبر الأخير "عن الغيب" وعن "غيب الغيب"، وهو المفسر السديد للأشياء والأحداث، وهو المبيّن للعلاقة بين الإنسان والخالق من غير أدنى لبس، وهو الموضح عيانا وجهاراً مقتضيات هذه المناسبات. هو المرشد إلى القرب الرباني؛ وهو الأول والأقرب إلى الحق تعالى من جهة، والأخير والأعظم أمانة من وجهة أخرى.

صاحب القول الفصل

الملائكة انتظرته، والأنبياء بشروا به، والأولياء ثمراته التي تقتبس منه النور. مشكاة النبوة اتقدت به بداية، وبه أيضاً ظهرت زبدة معناها ومحتواها في أبهى صورة وأنْورِها. نوره الأول سباق الأنوار، وطوفان ضوئه الأخير هو ظهوره في العالم الخارجي. ومن جهة أخرى، هو فهرست الآفاق والأنفس، ولب الوجود وعصارته، وأضوأ ثمار شجرة الخلق من حيث الغاية، وسيد الإنس والجن أجمعين باسم الخالق الجليل.

هو فوق الوصف أبداً من حيث جوهره وموقعه، لا نظير له باعتبار ذاته، فريد الكون والزمان بأعماقه الأخروية، وبرهان ظاهر بالرسالة التي يحملها. شهرته تمتد إلى ما قبل آدم النبي، وضياؤه لهجت به الألسن من قبل وجوده، وقدومُه -وقدمه تاج رؤوسنا- إحسان للإنسانية جمعاء. وجوده أصفى لؤلؤة في صَدَفة الوجود، ورسالته أشمل الرسالات. علمه زبدة العلوم كلها، وعرفانه منبع نقي وصافٍ يجمع حوله أضوأ الوجوه، وأُفقُه كمرصد تمرع إليه الأرواح الصافية المتطلعة إلى اللانهاية. العيون حظيت بقراءة

الأشياء على وجهها الحقيقي بفضل النور الذي نشره في الأرجاء. والآذان استمعت في ترانيم أقواله إلى أنغام روحانية من جواهر الكلمات لم تسمعها من قبل. وكم سر ظهر عيانا بيانا، وكم فكرٍ كدرٍ صفا إلى الصفوة في أجوائه. من رآه واستمع إليه زال عن روحه الصدأ، وانقشع عن عينه الضباب. وما أن أخبر عن أولِ كلِ أول، وآخرِ كلِّ آخر حتى عُرف كل مجهول عجزت عن إدراكه عقول البشر، وتحلى غير المعلوم بلباس العلم والمعنى، وأصبح الوجود كله قصيدة شعرية تنشد على كل لسان، ونغما أبديا يُفَسِّر غاية الخلق ومقصده.

العلوم ما هي إلا قطرة من بحر علمه، والحكمة برمتها رشحة نزرة من شلال معارفه. الأزمنة كلها لا تعدل لحظة من لحظات عمره. كرة الأرض التي لا تزن جناح بعوضة في الكائنات، هي عالم يعدل الوجود بسر كونها مسقط رأسه. هو المقدم في التعيّن والبرنامج القدري، وهو صاحب القول الفصل الأخير في قضية النبوة، وهو الشارح الحقيقي للظاهر، وهو الناطق بأسرار الباطن. هو سلطان عرش النبوة بخَلقه خلقا ملائماً لتلقي الحقائق العلمية والعقلية من روح القدس، وبشعوره الرحيب، وبإدراكه الرفيع، وبقلبه المنفسح لما وراء الملكوت، وبسر استعداده للاطلاع على ما وراء الوراء. وهو أفصح ترجمان لعالم الرسالة الإلهية مبلغا ما تلقاه إلى الأرواح والعقول من غير عارض أو خلل، كجهاز استقبال نوراني منفتح على الماورائيات.

وهو -مع أن له خصوصيات ذاتية سامية- يخبرنا بمقتضى نبوته عن الحق تعالى، ويُعَرِّفنا به، بذاته وأسمائه وصفاته، ويُحفّز فينا الشعور بالمسؤولية أمام الحق تعالى. ومن هذه الجهة هو معرّف ومعلم أكبر يُبَيِّن ما لا يَبين ويشعر أرواحنا بما لا يُدرك. أما من جهة تبليغ الأحكام الدينية وتعليم القيم الإنسانية وتمثيل الأسس الأخلاقية، فهو مُشَرِّع موظف وواضع للقوانين وقول شارح لحقيقة الحقائق.

الجامع بين الظاهر والباطن والأول والآخر

إن النبوة والرسالة وتحت وصايتهما الولاية، كما أنها متفتحة على الظاهر، كذلك هي "مُفَتَّحة الأبواب" على الباطن. وإن عقول هؤلاء (الأنبياء والرسل والأولياء) أيضاً قد اصطبغت بصبغة هذا المنصب الإلهي... لكنها تقف من ورائهم بخطوات، تنتظر الأوامر منهم. إن عقلاً مدركاً لحدوده -مثل عقولهم- داخلاً في وصاية النبوة، يتنور بـ"الروح الأعظم" ويصير بُعداً مهما من أبعاد حقيقة الإنسان. وبمرور الزمان يبدأ باستشعار الباطن مع الظاهر، والآخر مع الأول.

وإن للوجود ظاهراً وباطناً. الظاهر يُـرَى بالعين ويُدرَك بالحواسّ، ويُقَوّم بالعقل والمحاكمة العقلية. أما الباطن فلا تفتح أبوابه إلا من قبل الله لمن خُلق بجَهاز يستشعره، فيتم الإحساس به صوتاً ونَفَساً ولوناً ونقشاً مختلفا عن الظاهر. فالأنبياء يستمعون إلى هذا الصوت والنَفَس بموجات مختلفة الأطوال مدى الحياة، ويتصرفون أبداً بمقتضاه.

وإن حضرة سيد الأنام، عليه أكمل التحايا، رمزٌ وصوتٌ للفائقية المطلقة من حيث جهازه الخاص المتناسب مع حاله الخاص. فالله يُسمعه ما لا يُسمَع، ويريه ما لا يُرى، ويُقدمه على الروحانيين بإكساب روحه ماهية فوق الزمان والمكان أحياناً، فيتقدم على الملائكة، أكرم عباد الحق تعالى، فيصل إلى "قاب قوسين أو أدنى". وله مكانة وقَدْر متمادٍ ووطيد عند الخلق كدرجته عند الحق تعالى؛ فإنه ما حاد عن الاستقامة قيد شعرة في عمره كله، ووَثِق به الجميع من صديق أو عدو، وبلّغ المخاطبين بما أُوحي إليه من الحق تعالى في بهائه الرباني، ولم يُذكر إلا بالعصمة، ولم يُعرف إلا بالصون الإلهي، وقرأ -دائما- الطبيعة وما وراء الطبيعة قراءة سديدة، وفسرهما تفسيراً صحيحا بروحه النيرة وبفطنته النافذة المتفتحة على عوالم المادة وما وراء المادة؛ ولذلك هرع إليه من غير توان صاحب كل وجدان نظيف متنزه عن أي حكم مسبق، وخضعت له أعصى النفوس تمرداً، واستسلمت له أذكى الأدمغة قاطبة؛ إذ قرأت في رسالته غاية خلق العقل. وبفضله انسلخ الإنسان من الحيوانية والجسمانية وتوجه تلقاء أفق في مرتبة حياة القلب والروح. هو -باعتبار أفق الوجود- المفتاح السري للباب الموصل إلى الوجود الخارجي، وهو -باعتبار تحقيق الهدف من خلق الوجود- الهادي إلى الصراط المستقيم الموفي إلى الحق تعالى، ونبع شفاعة السعادة الأبدية.

كل الأنبياء الذين مضوا من قبله قد قالوا ما قاله... والأولياء والأصفياء من بعده كلهم أجمعون -وأحوالهم الخارقة شاهدة على دعواهم- صدّقوه وشهدوا على صدقه، وأقروا واعترفوا بأن حظوظهم هي منه. فإنه قد قال "الله" ولفت الأنظار إلى التوحيد. وإن أصوات الأنبياء والمرسلين وأنفاسهم، ومشاهدات الأولياء والأصفياء وكشوفاتهم طراً، تؤيده وتسنده.

وكان صرحاً للإيمان... يعيش ما يقوله بمعيارٍ أدقّ من شعرة شطرت أربعين مرة، ويزن تصرفاته بموازين الآخرة الدقيقة، ويحيا حياته في عمق كأنه يرى الله، وفي عمقِ رؤيةِ الله له. هو الأرهف حساسية في تصرفاته، والأعظم جدّاً في المسؤولية، ويسعى حثيثا في أثر حســن العاقبة ولا يحيد طرفة عين عن الهدف، بل يهرع أبــداً إلى النقطة التي اختير لهــا... وإذ يهرع إليها، يمد للجميع خطوط المعاني حُزماً حُزماً من الروابط بينه وبين الله تعالى.

شارح معنى الوجود

وهو الذي شــرح معنى الوجود فربطه بصاحبه الحقيقي، وبيّن الحكمة المكنونة في لب الأشــياء والأحداث، وذكّرنا مرارا بأننا لسنا وحيدين هنا، فشــرح صدورنا بإشعار أرواحنا بأننا تحت الرعاية الربانية، وأزال الوحشــة من نفوســنا وسما بأرواحنا إلى العلياء بنفحات أنســه، وسقانا مشاعر السكون والاطمئنان التي نشــعر بها في ربوعنا وبين أهلينا. فإن كنا نحس بأن كل شيء في محله في هذا المأوى الدافئ، وإن كانت قلوبنا تخفق بعشق الحقيقة، وإن كنا نطلق أنظارنا في آفاق الكون الشاسعة مفكرين متأملين، فهــذا كله بفضل النور الذي أوقــده في عقولنا. وكل ما نعرفه عن الإنسان والوجود والكائنات برمتها، فهو تفصيل لمجمل ما أودعه في نفوسنا، ونمو لبذور الحقائق التي بثها في أرواحنا.

هو باني الإنســانية من جديد، ولا يزال، وسيبقى بانياً، في أمسها ويومها وغدها. وكما بدل في عصره بحملة واحدة، وبنفخة واحدة، مفاهيمَ ضالةً، وسلوكيات غير إنسانية، وانحرافات سوءِ الأخلاق والمزاج المغروسة في الطبائع من آلاف السنين، فسيُسمِع صوته -يقيناً وحقاً- للجموع المنفلتــة، المنفرط عقدها اليوم، ويضبطهم بضوابطه إن عاجلاً أو آجلاً، ويظهر قوة رســالته... وسمّه -إن شــئت- تجديد القراءة السديدة والتفسير الصائب في حقيقة (الإنسان والكون والألوهية) مرة أخرى، واتخاذ الإنسان موقفا يناسب دوره اللائق به في الوجود.

لقد أُرسل حضرة سيد الأنام (عليه ألفُ ألفِ صلاة وسلام) برســالة تتعلق بكل أحد وكل شيء. وكان يوفي وظيفته حقها ويؤديها بعمق فتمتلئ بحبــه الأفئدة وتنجذب إليه القلوب. فهو يتفتق تكاملاً شاسعاً في خلقته، وصدقا منقطع النظير في تصرفاته، وربانية تتجاوز جوانبه المادية دائماً في ســلوكياته. وهو -فوق هذه الجماليات الظاهرية الباهرة- صاحب أخلاق رفيعة لم يطلها أحد، سماها القرآن الكريم بــ"الخلُق العظيم".. حتى إن مَن يدخل رحابه لمرة واحدة من غير أحكام مســبقة، لا بد أن يدخل تحت تأثيره ويتعلق به إلى أبد. وعنده -مع هذه المحاسن والمعالي- بيان يأخذ بالألباب؛ فإذا تكلم أبكمَ أمهرَ حُذّاق اللسان، فيغوصون في مراقبة السكوت، وينجرفون في تيار جذب قوله.

هيبته عليه الصلاة والسلام

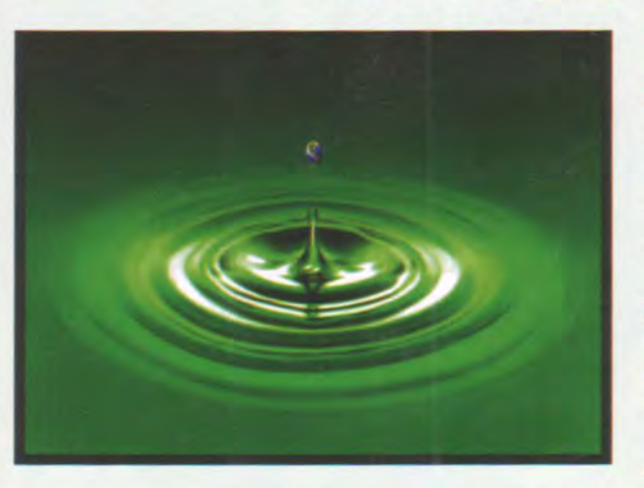
وإليك شــيئاً من تفصيل ما قلناه آنفا: لقد وهبه الله تعالى السعة في خلقته الداخلية والخارجية، فهــو مهيب في تواضعه، جذاب في شــخصيته... حتى إن دَخَلَتْ إلى حضرته أشدُّ النفوس كبراً وغروراً، ارتعشتْ من هيبته، وتصرفت بغير ما نوت وتصورت؛ وإن رسل كســرى المتكبرين ذهلوا وأُلجموا حيال صرح المهابة هذا. ومع هذه الهيبة، وهــذا الجد والوقار، كان فيه لين عجيب يجذب إليه النفوس، حــتى لَيحس من يعرفه عن قرب بأنه أقرب إليه من الولــد والأم والأب وكل حبيب، بل يكاد "يدمِن" عليه فلا يود أن يغادر مجلســه أبداً. أحواله وتصرفاته كلها تبث ثقة عميقة في القلوب، وأقواله وأفعالــه وملامحه تدل على حضوره الدائــم أمام الله تعالى. يبث الأمان دوماً، وينشــر الاطمئنان في الجميع حُزَماً ورُزَماً.

فقد عُرف بالأمين أولاً وآخراً... فالأمن يشــع من نظره، وكلامه يدور بلا توان حول الأمن، وفي حضوره تسمع نغمات الأمــن. وكانت تصرفاته وعقله وروحــه وعواطفه ومنطقه في توازن وانسجام تام. وإن ذكاءه المتقد، وفراسته السديدة، وثباته الذي لا يعرف التردد، عزمه وإقدامه، إستراتيجيته المحيرة للعقول مــع تجنبه الكذب والخداع، صبره وثباته حيال أشــد الأهوال، وتبســمه في وجه المصائــب، وقراءته للملمّات قــراءة صائبة، واســتخلاصه منها عبراً ملء الكتــب، وحلمه الوطيد، ووقاره الراســخ حيال الأحوال الموجبة لأشد العنف والغضب والحدّة، لهي نبذة يسيرة من خصاله وخلقه التي تبرز شخصيته المتميزة بين البشرية، وتفصح عن مقامه ومكانته ووقفته الفريدة التي تناسب هذه المكانة السامية. فله المواقف البطولية حيث يضطرب الجميع ويذهلــون، إذ تتبدل بها الهزيمة إلى الظفر، والفر إلى الكر، فترفل رايات النجاح الإستراتيجي في خِضَمِّ المعارك ودخان الحروب.

كان بين أهله رب عائلة لا نظير له ولا شبيه، وبين أصحابه معلّماً ومرشداً كاملاً يدلف شغاف قلوبهم بلينه الأخوي، وهادياً سديد الرأي لا يخذل من اتبعه، وخطيباً سيداً على الكلام، ذا قلب رباني، وحكيما أستاذاً في استخدام العقل، ورئيس دولة لم يعرف

مثله، وقائدا عظيما يحول الهزائم إلى انتصارات بجملة واحدة. فأنواع الكمالات كلها تبلغ فيه الذروة العليا، لكنه يتصرف أبداً بين الناس كفرد من الناس، ويعد نفسه واحداً منهم، فيؤذيه -من كثرة تواضعه- أن يُسند الناس إليه -أدبا منهم- مقامات رفيعة هو حقيق بها أصلا، فيحذر أصحابه بين فينة وأخرى من ذلك تحذيراً شديداً قد يصل إلى حد التوبيخ أحيانا.

كان بمثابة "علة غائية" للوجود، لكنه ما كان يوليه اهتماماً بقدر جناح بعوضة. رفع السلاطين إلى العروش وألبسهم التيجان، لكنه عاش زاهداً أشد الزهد، فكأنه صائم عن الدنيا؛ فأشبع و لم يأكل، وألبس و لم يلبس، وهتف بالشكر مئات المرات حيال قطرة من نعمة، مستشعرا فضل الله عليه وإحسانه على الدوام. فهو يسابق الملائكة في مضمار المعرفة الربانية والمحبة والخشية. أجل، كان في الدنيا، لكنه لم يكن دنيويا، بل كان في طريق العقبى... بل لم يكن مرتبطاً حتى بالعقبى أوّلا وبالذات، ذلك لأن قلبه كان معلقا بربه، وعينه في آثاره وفي أسمائه الحسنى التي تضفي على آثاره ألواناً وصورا ومحاسن شتى. كان ينظر إلى الدنيا وكأنها خليج للعقبى، ويراها وكأنها مزرعة يزرع فيها ويحصد، ويحيل الحاصل إلى الآخرة. وكان يَهُبُّ ويروح ويغدو كالرياح التي تحمل البذور وتطير يمينا وشمالاً لتودعها أمانة للفلق والنماء، فكان يعتني بالفقراء ويرعاهم، ويطعم الجياع، وكثيراً ما يبيت هو جائعاً خاوي البطن. إنه سلطان عالَمي الدنيا والآخرة، لكنه إذ ارتحل إلى ربه، لم يورث أهله قصراً ولا عقاراً ولا مالاً ولا ريشاً. فقد عاش عيشة تليق به، وقوّم الدنيا تقويما يناسب شخصيته، ورحل منها رحلة توافق مكانته وعظمته. ومعلوم أنه لم يكن تاركاً للدنيا تماما، كما أنه لم يكن جامعا لها ومشغولا بها قط. فإنه كان يهتم بالدنيا بقدر حجمها وفنائها، ويهتم بالآخرة وما وراء الآخرة بحسب خلودها وسرمديتها، فيتخذ موقفه منهما بناء على هذا التصور.



ومع مهابته الرائعة المحيرة للعقول الحاصلة من علوّ الأصالة وسموّ النجابة وصِلته الوثيقة بالحق تعالى، كان متواضعاً أشد التواضع وكأنه يجمع بين الأضداد، حتى إن من لا يعرف خصاله وسجاياه المذكورة آنفاً، كان يحسبه من آحاد الناس. كان لا يعير اهتماما بتعظيم أصحابه وتوقيرهم له، فيقعد معهم ويأكل ويشرب، ويستر عنهم فوارقه وخصوصياته السامية التي تفرد بها عنهم أشد الستر حتى لا يشعرهم بالتمايز، ويريح مَنْ حوله أحياناً بمُلَح من ألوان التجليات الجمالية من العبرة والحكمة والمزاح أحيانا لكي لا يثقل عليهم عبء ما في طبعه من المهابة والعظمة والمخافة؛ فهو يزين عِزّتَهُ بالتواضع، ويلطّف مهابته بالشفقة، ويقدم لونه الناسوتي[1] ليزيد حلاوة إلى شهد مقامه وحلو طعمه.

كان حليما ومأمونا ورزينا، ليّنا أعظم اللين حتى في الأحيان التي تستفز فيها وتثار مشاعر الحقد والكره والغضب، فيخفف شدة الطيش وحدّةَ الغيظ، ويسكّن بنظرة واحدة عداوة ألدّ أعدائه؛ وكان كلما أريد سحبه إلى موقف الخصم قفز إلى موقع الحَكَم. كان عفوّاً وسمحاً ما لم تُنتهك حرمة لله تعالى أو يهضم حق عام. وفي السيرة النبوية مئات الأمثلة والشواهد على عفوه وصفحه وسماحته.

وفاؤه بالعهد عليه الصلاة والسلام

وما كان له نظير في الوفاء بالوعد؛ فلم يخلف وعداً قط ولو مرة واحدة، و لم يرجع عن قول ألبتة، و لم يقل شيئاً ثم خالفه، أو نطق بشيء خلاف الواقع حتى وإن كان إيماء، سواء قبل البعثة أو بعد نيله شرف النبوة. فسيرته صرح للأمانة والصدق والوفاء، وحزمه ضد من يخون العهد والميثاق معلوم ومشهور.

كان سلطان عالم البيان، ولقد بلغ جوهر القول قيمته الحقيقية على لسانه. لم يمسك بيده قلما ولا قرطاسا، و لم تطالع عيناه كتابا، و لم يجلس في حلقة درس، و لم يحتج قط إلى أن يقول لأحد "أستاذ"، بل كان أستاذ الكل في الكل، وما من

شيء يستطيع أن يمس أستاذيته الكلية. وفي هذا صيانة من الله لأوامره الإلهية أولاً، وصيانة لمَلَكات النبي الفطرية ثانيا وتاليا، من التأثيرات والتصورات الخارجية، حتى لا تُكَدِّر المكتسباتُ الذهنية والمعلوماتُ الأجنبية تفسيرَ الأوامر الإلهية، ولا تتلوّن بلون غير لونها، أو تصب في قالب غير قالبها. فكان أميا بهذا المعنى -ونفوسنا فداء لذاك الأمي-، ولكن له أقوال وأحكام وقررات في شتى الشؤون من أمور الدنيا والعقبى -باعتباره أستاذ الكل- حيرت وأدهشت الكل؛ بدءً من المتبحرين في العلوم وامتدادا إلى فحول العباقرة، وإلى العقول الضليعة في الفلسفة، وإلى النفوس الصافية والأرواح المستنيرة. والتاريخ يشهد أن أحداً لم ينل من رصانة بيانه، أو يقدح في حكم له، أو يتجاسر على أن ينتقص من إجراء له.

كان خزينة للمعرفة وحوضا للعلم نقيا متلألئا، لم يعترض أحد على إخباره عن الأحداث الغابرة، ولا إخباره عن شؤون الديانات والمذاهب والثقافات والتقاليد والأعراف العائدة إلى أمم بائدة في التاريخ، وما كان لأحد أن يعترض، لأنه رسول الله، ومصدر علمه السديد الذي يصب في ذلك الحوض وتلك الخزينة، هو الله تعالى. فكان في البيان سلطانَ بيان وصاحب القول الفصل، وكان في المنطق صرحَ محاكمة، وفي الفكر بحراً محيطاً كفؤا لضخامة مهمته ورحابة رسالته العالمية. إن عباراته من السلاسة والانسياب، وبيانه من الوضوح والفصاحة، وأسلوبه من الغزارة والتلون والبهاء، بحيث يستطيع أن يعبر عن حقائق ملء الأرض في جملة أو جملتين، ويضمّن شؤونا تَسَعُ المجلدات في كلمات، وينطق بجواهر، وأيما جواهر، ليودعها عند أساطين التفسير والتأويل. وفي حديثه: "أعطيت جوامع الكلم"[٢] إشارة منه إلى هذه الرحاب الفسيحة.

وكان الناس يمطرونه بوابل أسئلتهم في كل شأن من كل جهة، فيرد عليهم من فوره بغير أدنى تلكؤ. كلامه سهل يفهمه السواد الأعظم، ويعبر عن مقصوده بعيداً عن التشوش أو التشويش في إيجاز صاف وسيّال. وحين يتكلم يراعي مستوى المخاطبين لكي يفيدهم، من عالم وجاهل، وذكي وغبي، وقليل خبرة وخبير، وشاب وكهل، ورجل وامرأة، فيَبعث الاطمئنان في قلوبهم.

وإن أقواله وخطبه كثيرة، حيث خاض في شؤون مختلفة، وحلل موضوعات متنوعة، لكنه لم يجانب الحقيقة والواقع في أي من أقواله وأفكاره. فلم يستطع أحد أن يلحظ على بياناته وأقواله ما يخالف الواقع، حتى إن ألد خصومه الذين يترقبون زلة منه ليوقعوا به، لم يجرؤوا على إسناد الكذب إليه، بل عجزوا عن ذلك.

والحق أن من صان لسانه وكل تصرفاته عن مخالفة الواقع صوناً أدق من الشعرة، من طفولته إلى شبابه، ثم إلى سن تشرفه بالنبوة في الأربعين، لا يُتصور أن يقوم بادعاء النبوة زوراً. وإن تصوراً كهذا شيءٌ يتجاوز الإثم إلى تعصب كفري أعمى، واستهانة بالعقل والمنطق. هذا، وإن تبليغاته وموضوعات أحكامه رحيبة وسعت الماضي والحاضر والمستقبل، ومحتوياتها متنوعة تتعدى عقول البشر: فهو يتكلم في العقائد، ويضع الأحكام في العبادات، ويتحدث في الشؤون الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والإدارية، وينفّذ ما يقول، ويجني ثمرات ما ينفذ، ويتخذ من التاريخ شاهدا على صواب الأسس التي وضعها فيودع هذه الشهادة أمانة في الضمائر المنصفة البعيدة عن الأحكام المسبقة، وبعد ذلك يصدّقه بختم التصديق آلافُ المفسرين والمفكرين والخبراء المتفننين في فنون كثيرة، ومئات الفلاسفة، على ما قال قول، وعلى الأسس الاجتماعية والاقتصادية والنظم العسكرية والإدارية، والقواعد التربوية التي وضعها. وزد عليهم جميعاً أن ملايين الأولياء والأصفياء يؤيدونه تصديقاً في كل حكم وفي كل بيان لهم، ويهتفون أنهم بلغوا المراتب والمقامات بهدايته. لذلك فإن من يقول له "لا"، فهو إما مخبول لا يدري ما يقول، وإما بائس بسوء الحظ مغسول الدماغ. فما شهد الماضي والحاضر أحدا مثله استطاع أن يقول شيئاً أو يضع أحكاما ثابتة في مسائل كثيرة مختلفة، ولا سيما في موضوعات تتطلب حنكة واختصاصا ومهارة، فيدومَ طرياً ونديّاً أبداً مع الدهر. وكما نبّه بديع الزمان النورسي رحمه الله: "إن الإنسان قد يستطيع أن يقول شيئاً ذا بال في بضعة فنون أو علوم. لكن حضرة ذاته صلى الله عليه وسلم أدلى بدلوه في شؤون دقيقة تتعلق بالوجود والأحداث كلها، وقال أقوالا نافذة في كل زمان ومكان، وبأسلوب بديع في المهارة والحكمة، وباطمئنان من غير تردد وتلكّؤ، لا يملك حياله من رآه وعرفه، ومن سمعه فأنصت إليه من غير حكم مسبق إلا أن يقول: "آمنتُ وصدّقتُ". ■

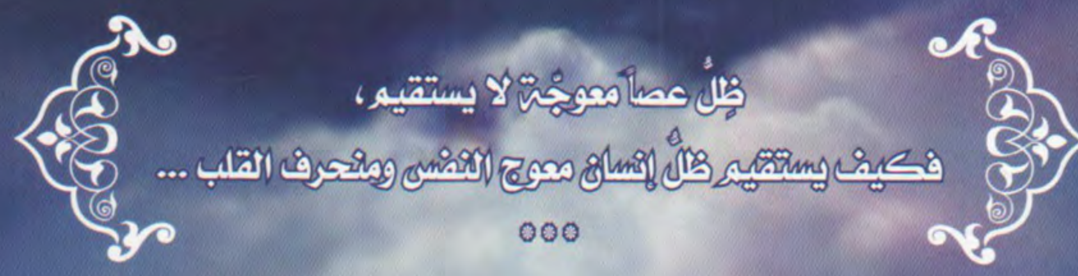
---

[*] الترجمة عن التركية: عوني عمر لطفي أغلو

الهوامش

[١] الناسوت: الطبيعة البشرية.

[٢] البخاري، الجهاد ١٢٢؛ مسلم، المساجد ٦.





التأسيس بين التبرك والوظيفية

نحو استئناف التأسيس المنهاجي لعلم التعامل مع آثار النبوة

أ.د. أحمد العبادي*

عانت البشرية كثيرا -ولا تزال- في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية من جراء عدم الاستبصار بمعالم وسمات الإنسان السوي والمجتمع السوي، اللذَين ينبغي أن يشكلا الوحدة القياسية التي يجب أن يُتيمّم شطرها بالمناهج والبرامج التربوية، وكذا بمختلف أنواع الكسب العلمي والعملي في المجالات الاجتماعية.

ولذلك نرصد في مختلف حقب تاريخ البشرية المعروف، كثيرا من التخبطات وأضرب الخرص في المجالات التربوية والاجتماعية والإنسانية بسبب غياب هذا الوعي الأساس.

وتأتي الأهمية البالغة للوحدة القياسية الدالة على حالة السواء،

من كون التعـرف على حالات الاختـلال والانحراف لا يمكن بدونها، كما لا تمكن بدونها معالجة هذه الاختلالات والانحرافات. وهذه حقيقة ماثلة في مختلف مجالات العلوم المادية والإنسانية، غير أنها أجلى وأظهر في العلوم المادية البحتة منها في العلوم الإنسانية.

ولنأخـذ مثالا على ذلك علم الطـب. فهذا العلم يتمَفصل حول محاور ثلاثة:

١-العلم بالجسـم وأعضائه في حالة السواء، والتعرف عليه شمولا وعلـى وظائفه، ثم التعرف علـى أعضائه تفصيلا وعلى وظائفها، وهو علم الأناتوميا والهيستوسيتولوجيا.

٢-العلـم بحـالات الانحـراف والقصور الـتي تطرأ على الجسـم وعلى أعراضها وأوصافها وأسمائهـا تفصيلا، هو علم السيميوباتولوجيا.

٣-العلم بكيفية رد حالات الانحراف إلى السواء مرة أخرى بالصيدلة أو بالجراحة، وهو علم الفارماكولوجيا وعلم الجراحة.

والعلمان الثاني والثالث يتفرعان عن العلم الأول، إذ لولا العلم بحالة السواء وضبطها لما أمكن الوقوف على حالات الانحراف ثم لما أمكن ردها إلى حالة السـواء بعد ذلك مرة أخرى؛ إذ كيف يُرَدُّ الاختلال إلى السواء إذا لم يمكن التعرف عليه؟ وهو أمر غير وارد ما لم تكن حالة السـواء الشاهدة معروفة بتفصيل وتدقيق بحيث يسهل تبين التغيرات التي تطرأ عليها ذاتا وأداءً.

غير أن هذا -وكما سلف- رغم وضوحه في العلوم البحتة الكونية فإنه ليس بالوضوح نفسه في العلوم الإنسانية والاجتماعية.

يوطبيات وأبطال

لقد حاولت البشـرية في مختلف مواقعها عـبر تاريخها الممتد أن تحل إشـكال الوحدة القياسية على الصعيد الاجتماعي من خلال إنتاج "يوطبيات" حول طبيعة ومكونات المجتمع الفاضل والمدينة الفاضلة، وعلى الصعيد التربوي من خلال إنتاج مفهوم البطل.

أنموذجـا على المحـاولات في الجانـب الاجتماعي، جهود أفلاطون في "المدينة الفاضلة" وجهود القدّيس أغوسطين في "مدينة الإله" وجهود الفارابي في "المدينـة الفاضلة" أيضا. وكذا جهود كارل ماركس وبعده لنين وكذا تصورات كل من ستالين وهيتلر وموسوليني للمجتمع الفاضل؛ وهي يوطبيات جرّت لعدم مواءمتها لطبيعة الإنسان والكون على العالمين وبالاً غير قليل.

وأنموذجا على المحـاولات في الجانب الفردي ما يوجد في الأعراف المصرية والإغريقية والهنديـة والصينية وفي حضارات بلاد الرافدَين وكـذا في الحضارة الرومانية مـن إقامة النُّصب والتماثيل لأشخاص مختارين يرفعون إلى مصاف الأبطال ليكونوا مثـلا تربوية يعاد إنتاجها، غير أن ضعـف المؤهلات الإدراكية والآليات التفكّيكة لم يكن يمكن من الرسـم العلمي والوظيفي لمعالم شـخصياتهم وسمات نفسياتهم ومراحل مساراتهم، مما كان يؤدي في كثير من الحالات إلى الانحسار في التقديس.

ويمكن رصد الظاهرة نفسها في كتب "البانتاتوك" والأبوكريف اليهوديـة التي تبنّت بعضها النصرانية. وقد اسـتمر هذا الخط في الحضارة الغربية المعاصرة إذ يلحظ اسـتمرار البحث عن الأبطال لإرسـائهم نماذج تحتذى وصب سمات شخصياتهم الأساسية في المناهج التربوية. غير أن هذا النهج كذلك لم يحقق لغياب الاستبصار بحقيقة الإنسان السوي ودوره الكوني إلا نتائج جزئية.

تقديس أم حرمان من ثمرات النبوة؟!

ساهم اعتقاد طوائف كثيرة من النصارى بأن المسيح ابن الله (!) في حرمانهم الكلي أو الجزئي من التأسـي بنبي الله عيسى عليه السلام، إذ كيف يُتَأَسَّـى بمن هو ابن الله؟! فكان هـذا الاعتقاد متيحا لهامش غير قليل من راحة الضمير -ولو في حالة المخالفة لتعاليم المسيح عليه السلام- عند إنسـان حضارة "Christendom" على حد تعبير "مارشـال هودسون" لأن ذاك ابن الله، وإذا أخطأ الإنسان العادي في اتباع جوانب مـن تعليماته فلا حرج(!) الأمر الذي حاول القديس "بينيديكت" استدراكه في قانونه التربوي المشهور "Code de St Benedict"، غير أنه لصرامته الشديدة كان غير ذي قابلية للتحقق خارج بعض الأديرة المحدودة جدًّا.

ويمكن رصد القطائع نفسها بين النبي والأتباع -وإن بشكل مغاير- في ديانات أخرى بسـبب رفع النبي فوق مصافِّ البشر؛ بـل وربما إلحاقه في بعض الأحيان بمصـاف الآلهة؛ مثل ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْـرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ﴾ (التوبة: ٣٠).

الإسلام وردم الهوة بين المتأسي والمُتأسَّى به

حين نبحث إشكال التأسـي في القرآن المجيد وفي السنة النبوية المطهرة نجد تَمحورا حول المحاور الكبرى الآتية:

١-النبي بشر عبدٌ لله مثل البشـر، غير أنه اصطُفي بعلم الله ليوحَى إليه

ونجـد ذلك في آيات كثيرة من كتاب الله منها قوله تعالى: ﴿قُلْ

إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف: ١١٠). وقوله ﷻ: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَرًا رَسُولاً﴾ (الإسراء: ٩٣). وقوله عز من قائل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ (الفرقان: ٦).

وتثبيتا لهذه الحقيقة قال ﷺ: " أجلس كما يجلس العبد وآكل كما يأكل العبد، فإنما أنا عبد"[١]. وقال عليه الصلاة والسلام: "إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد"[٢]. وقال ﷺ منعا لأسباب إنتاج الفجوات السابقة[٣] بين الأنبياء والمؤمنين: "لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم"[٤].

وعموما فإننا نجد في القرآن المجيد التأكيد على عبودية الأنبياء عليهم السلام، سدا لكل ذريعة قد تؤدي إلى إحداث هوة بين النبي والمؤمنين. فقال ﷻ حكاية عن المسيح عليه السلام: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ (مريم: ٢٩-٣٠). وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (ص: ٣٠). وقال عز من قائل: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ (ص: ٤١).

٢-التأسي في القرآن المجيد يتم بالنظر إلى النبي المثال، فبالنظر إلى الحال ثم العمل على الانتقال من الحال إلى المثال

قال تعالى في معرض الكلام عن نبيه إبراهيم عليه السلام وعن أتباعه الخُلَّص: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾ (الممتحنة: ٦). وقال ﷻ عن خاتم النبيين سيدنا محمد ﷺ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١).

فالأنبياء إذن مثال هاد لمن قام في قلوبهم الشوق والتوق إلى ما عند الله ﷻ وتجلى هذا الشوق وذاك التوق بالذكر الكثير له ﷻ. والأنبياء هم الوحدة القياسية المرجع التي تمثل حالة السواء الشاهدة التي ينبغي أن يرصد من خلالها الحال لكي يتم العمل العالم المهتدي على نقله إليها. فهو إذن شوق وتوق وذكر كثير ونبي شاهد وعمل دؤوب عالم ففضلٌ من الله كبير مع وجوب الانتباه إلى العقابيل الحائلة دون هذا الإنجاز الضخم (التأسي) الذي عليه يقوم تحصيل السعادتين في النشأتين بالتوكل على الله تعالى.

٣-النبي شاهد وشهيد مُؤيَّد

النبي هو الوحدة القياسية الشاهدة التي تمثل حالة السواء في المجال الإنساني والتي بالنظر الواعي إليها يتم التعرف على الاختلالات التي في هذا المجال جمعا وإفرادا. بذلك يحصل إمكان العمل على ردها إلى حالة السواء، وتلك نعمة من الله جُلّى؛ حتى إذا تمت إفادة الأمة من النبي فإنها بدورها تصبح وحدة قياسية على الصعيد الاجتماعي والحضاري يمكن التعرف عليها من خلال التعرف على الاختلالات في هذه الأصعدة ومن ثم يُمكّن هذا التعرف من العمل على ردها إلى حالة السواء[٥] وهذا هو ما يتجلى في قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاَكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (الحج:٧٨). وفي قوله ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣).

وحتى يكون النبي بعد اصطفائه لهذه الوظيفة التكوينية الخطيرة قادراً على الاضطلاع بها، يكون إنعام الله بالتأييد. قال تعالى في معرض الكلام عن الرسل عامة ومن اتبعهم من المؤمنين: ﴿كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ * لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ (المجادلة: ٢١-٢٢).

وقال ﷻ عن نبيه عيسى عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ (المائدة: ١١٠). وقال تعالى عن نبي الختم ﷺ: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال: ٦٢).

كما أن النبي لهذا القصد -قصد أن تمثُل فيه الوحدة القياسية الشاهدة- يُصنع ظاهراً وباطنا على عين الله. وقال ﷻ عن نبيه موسى عليه السلام: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾

(طه: ٣٩). وقال تعالى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ (طه:٤١). وقال ﷺ عن خاتم النبيين: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۞ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ۞ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۞ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ (الشرح:١-٤). وقال ﷺ في هذا المعنى: "أدّبني ربي فأحسن تأديبي"(٦). فكانت النتيجة في حقه ﷺ هي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٤).

ومن أجل ذلك كان اتباعه والتأسي به ﷺ هو المرقاة إلى مرضاة الله ومحبته. وقال عز من قائل: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ (آل عمران:٣١).

نحو استئناف التأسيس المنهاجي لعلم التعامل مع آثار النبوة

إن مكونات علم التأسي منتشرة بفضل الله في سجلات السنة النبوية المطهرة ومجامع التفسير ومصنفات علم التزكية والتصوف وكذا في كتب الفقه والأصول ولا تحتاج إلا إلى الجمع والمنهجة.

فالآيات المباركة في كتاب الله الكريم قد ألقت الأنوار حول الصفات المحورية للأنبياء والرسل وفي مقدمتهم إمامهم وخاتمهم سيدنا محمد ﷺ. كما أن المصنفات في الشمائل النبوية وفي دلائل النبوة قد ألقت الأضواء على شهادته ﷺ وعلى هديه عليه الصلاة والسلام. كذلك، فكتب السيرة عامة قد حاولت رصد حياته الشريفة ﷺ بدقائقها وتفاصيلها، فحصلت عندنا بحمد الله مجامع ما تحتاج إلا إلى التثمير والتوظيف.

ويمكن تبيُّن المعالم الكبرى لعلم التأسي على المستويين الفردي والجماعي كما يأتي:

١-الوحدة القياسية على المستوى الفردي

لقد ساد بين المسلمين في الأزمنة الأخيرة من تاريخهم، على خلاف ما كان عليه الأمر في عهد الصحابة الكرام ﷺ، التعامل التبرّكي مع آثار ودلائل النبوة وشمائل النبي ﷺ وسيرته العطرة عليه الصلاة والسلام. وفي ذلك خير كثير في ذاته، غير أنه لو شُفع بالوظيفية لكان الخير أعم وأتم، ونقصد بالوظيفية هنا أن يتم طرح الأسئلة العملية على آثار النبوة من أجل تبين أوجه الشهادة النبوية في مجال مخصوص، وتحديد منهجية الرد إلى الوحدة القياسية..

وهي أسئلة لا يمكن طرحها بطريقة سليمة إلا من لدن العالمين بالمجال قيد الدرس، إذ العلم بالمجال هو الذي يمكّن من تلمس مواطن الهدي النبوي فيه للتأهيل الناجم عن استتباب التضاريس المعرفية والمركبات المفاهيمية والأنساق القياسية ذات الصلة بالمجال في أذهان المشتغلين به، مما لا ينتج إلا بطول الممارسة للبحث في مجال معين، والتعاطي مع المشاكل المنهجية التي فيه.

ففي التربية مثلا، لن يكون أقدرُ على مساءلة آثار النبوة في هذا المجال من التربويين، لمكابدتهم له ولمعاناتهم البحثية داخله، معاناة تنشئ الشوق والتوق وكذا الاستعداد لوجدان الحلول.

وهل أقدر على استجلاب الدرّ من أعماق البحار ممن يعرفه ويعرف قيمته؟!

وأجلى مثال على ذلك في مجال التربية محاولة الجواب عن السؤال المؤرّق الذي مفاده: من هو الإنسان الأمثل الذي ينبغي أن يكون القطب الجاذب للمناهج والبرامج التربوية بحيث تتغيّى الوصول بالخاضعين للعملية التربوية إلى أفقه، دونما خشية من آثاره المضادة؟

وإذ إن البشرية اليوم تعيش في حيرة بهذا الخصوص من جراء توهم عدم التوافر على مثال حي خلو من النقائص، فإن أهل الاختصاص -بدعوى الوظيفية- يحاولون النظر في ما هو متعارف على كونه مشروعا مجتمعيا لاستخلاص مختلف الاحتياجات في الموارد البشرية ثم لتصيير تيسير هذه الاحتياجات وتوفيرها أهدافا تربوية تسكب في البرامج التربوية وتبدع مناهج تربوية وتُصمَّم لتحقيقها.

وإذا علم أن المشاريع المجتمعية نفسها ناتج التدافع بين موازين القوى في المجتمعات فإن الأمر يصبح أكثر تركيبا وتعقيداً. فالأقوى والأكثر نفاذا هم الذين يصوغون معالم المشروع المجتمعي ويشكلون العقول لقبوله، وذلك عن طريق خماسي: الإبستيم والأكادم والاقتصاد والسلطة والإعلام.

فالإبيستيم الذي يجمع بين الرؤية للعالم "الكوسمولوجيا" والأطر المرجعية/البرادكمات (Paradigma) واليطوبيا والمنهاجية. إما أن يكون وليد -انطلاق استنباطي من الوحي- أو توليد فلسفي مقولاتي نسبي حر، أو إملاء متحكم "نومونكلاتورا" يفرض ما يريد مثل ما نقل عن فرعون في كتاب الله ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (غافر: ٢٩). وجلي أن النمط الأخير هو السائد في عالمنا بألطف الطرق وأدقّها أحيانا، وبأصفقها وأعنفها أحيانا أخرى.

فبما أن الأكادم يأتي في الدرجة الثانية ضمن النمط الإملائي التحكمي بخلاف النمط الاستنباطي من الوحي والنمط الفلسفي المقولاتي النسبي الحر حيث يكون الإبيستيم متفرعا عن الأكادم، بما أن الحال كذلك في النمط الإملائي التحكّمي، فإن الفرد المتحكم أو الجماعة المتحكمة تكون هي المنتجة للإبستيم

والفارضة له على الآخرين. وهذا لا يُخلي بحال ساحة الخاضعين من المسؤولية. يقول ﷻ: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ۞ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ ۞ فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلاَئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ۞ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (الزخرف: ٥١-٥٤).

ويأتي دور المكون الاقتصادي الذي يكون عموما بأيدي فارضي النوموكلاتورات بتصيير الأكاديم في وضع التابع حتى في عين كينونته، إذ التمويل للجامعات ومراكز البحث والأبحاث التي تُجرى فيها يصبح مشروطا بالسير في سياق الإبستيم السائد، رغم أن الحق مع موسى عليه السلام!

فيقع الأكاديم في التنظير لأنماط التوجهات والسلطة المادية والمعنوية والدساتير والقوانين والوسائل المُمكّنة من حماية وتنزيل الإبيسْتيمات السائدة فهي حماية متبادلة بين السلطة والإبيستيم المسخر للأكاديم.

ليرفد الأكاديم بعد ذلك الإعلام بحمولاته الداعمة الداعية إذ لن يُنتج الأكاديم في هذه الحال إلا التوجهات والرؤى المتفرعة عن الإبستيم الحاكم.

فهذه حلقة مفرغة محكمة قادت وتقود العالم نحو أزمات صفيقة. وآية إفراغها وإحكامها أن المشاريع المجتمعية التي من المفروض أن تستهدي بها علوم التربية في وضع البرامج والمناهج التربوية لن تمنح سوى هذا الهدي التحكمي المُفرغ للإنسان من إنسانيته.

ومن هنا فإنه لا سبيل للخروج من هذه الأزمة إلا بالتعرف على الإنسان الشاهد -الوحدة القياسية- الذي يمثل حالة السواء والذي من خلال التعرف على بنائه النفسي والشخصي والقصدي يمكن الشروع في العمل على إنتاج العلوم الوظيفية والمناهج العملية الممكّنة من ردّ الاختلالات إلى حالة السواء. وهنا الدور المحوري الخطير لوظيفة النبوة ووظيفة الذكر الذي تأتي به متى ما حلّ الرشد في التعامل معهما والتأسي بهما.

فالتعرف على حالة السواء -وكما تقدم- يمكن من تجريد المثال التفصيلي الذي ينبغي أن يشمّر -من خلال البرامج والمناهج- للسير بالمتربّين نحوه بغير عوَج ولا أمْت. وهذا مضمار -في العلوم التربوية- للبحث والإبداع فسيحٌ خصيب.

ودائما في علاقة بالوحدة القياسية على المستوى الفردي فإن علم النفس وعلم النفس السلوكي وعلم التحليل النفسي كلها علوم تعاني الأمرّين لغياب العلم بماهية حالة السواء، ولا شك أن أهل هذه المجالات إن أعملوا عقولهم ووجداناهم لتجريدها من آثار النبوة، فسوف يحلُّون إشكالات أليمة ومكلّفة.

إن إنعام الله بأن تولّى ﷺ في مرحلة الختم بذاته العليّة حفظ الذكر: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩)، فحفظت بذلك آثار النبوة المنيرة، واستمر إمكان التعرف على النبي الشاهد وعلى حالة السواء من خلاله.. إن هذه النعمة الجُلّى إن شكرت بحسن التوظيف والتثمير، ولم تُكفر بالإنكار والاستهتار لَمن شأنها أن تهدي العالمين إلى مستقبلات أكثر إشراقا.

٢-الوحدة القياسية على المستوى الجماعي

لقد عانت البشرية كثيرا على الصعيد الاجتماعي من آثار الجهود الخارصة لتبيّن معالم وسمات العمران البشري الأمثل، كما عانت عبر تاريخها من إملاءات وتحكمات المستبدّين أفرادا وجماعات. وقد كانت الذعائر والتكاليف باهضةً، إذ كم قُدّم ويقدّم من الأبرياء الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا حطبًا لهذه المشاريع اليوطوبية، ليتبيّن بعد حين أنها لم تكن سوى سراب يباب، ولات حين مناص، وما الحالة السوفياتية منّا ببعيد.

وبما رحمة من الله تعالى فقد جعل ﷻ الوحدة القياسية على المستوى الاجتماعي تتمثل في المجتمع النبوي حيث تمكن النبي الخاتم ﷺ من جعله بهداية الله وتوفيقه يَنُثُّ كله بالهداية للتي هي أقْوم فضاءً وعمرانا وإنسانا ووظائف ومراكز وعلائق.

وقد كان البدء بأن تم تغيير اسم مهاجر الرسول الخاتم ﷺ من طَيبة ويثرب إلى المدينة -بألف ولام التعريف- ليفهم أن العمران الشاهد كان هو ذاك.

ولئن تكلم الفلاسفة عن المدينة الفاضلة وتاقوا إلى التعرف على الوحدة القياسية بهذا الخصوص، فإن النبوة -بأمر الله وفضله- قد أنشأتها واقعا حيا نابضا حفظت معالمه المركزية رغم كل التفريط والتقويض الذي يَنْدُر مثله عن البشر.

فالنبي الخاتم ﷺ قد زرع آيات الوحي وعلاماته وبصائره في نفوس أصحابه الكرام ﷺ، فَانْدَهَقَتْ منها إلى واقعهم لتكون هاديات خالدة للمحجة البيضاء التي لَيلُها كنهارها ولا يزيغ عنها إلا هالك.

إن في كتاب الله كما في سنة سيدنا رسول الله ﷺ البنيات الوافرة على السُّلَط والمراكز والأدوار و التدبيرات والوظائف والعلائق والنماذج والأخلاق والقيم التي ينبغي أن تَشْخص في المجتمع الشاهد؛ في حالة السراء وفي حالة الضراء، في حالة الشدة

وفي حالة الرخاء، في حالة السلم وفي حالة الخوف وكذا الحرب واللأواء،[7] مما ليس ينتظر إلا العقول المتمرسة الخبيرة لطرح الأسئلة المنهجية من أجل رفع صرح علم التأسي على الصعيد الاجتماعي.

خاتمة

وجب ختاما التنبيه إلى بعض الأسس المهمة من أسس علم التأسي وآكدها:

١-أن يعلَم المتأسّي حيثيات السياق الزماني والعمراني الذي يوجد فيه، وحيثيات سياق المتأسى به ﷺ الزمانية والعمرانية والبيداغوجية.[8]

٢-أن يعلَم المتأسي الفروق الأنتروبولوجية والثقافية والعُرفية وغيرها بين السياقين حتى إذا ساءل في أي مجال من المجالات، استدمج هذه الفروق ليكون التنزيل سليما، ولا يخفى ما يقتضيه هذا من جهد بحثي ممنهج.

٣-أن يستدمج المتأسي العلم بالمقاصد العامة للنبوة، رحمتها وجمالها وشرائعها حتى لا يفرط في الأصول لحساب الفروع أو يقدم ما من شأنه أن يؤخّر أو العكس... وهذا داخل ضمن فقه الموازنات والترجيحات. وقد قام علماء الأمة جزاهم الله خيرا بجهود وضيئة في هذه المضامير.

٤-أن يستحضر المتأسي وجوب النظر في المآلات، واعتبارها حتى لا يكون جالبا لمفاسد على نفسه ومحيطه من حيث يريد جلب المصالح، وكثيرا ما يحصل ذلك إذا أغفل البعد المستقبلي في التنزيل.

٥-كما أن من آكد الشروط أيضا وجوب المقاربة التكاملية التي لا تهمل جانبا من الجوانب أو تطغيه، بل تحرص على حضورها ومراعاتها جميعا بشكل مقدّر متوازن.

وبدون مراعاة هذه الشروط فإنه لا يمكن تفعيل وظيفة ودور الشهادة كما جاءت في مثل قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣).

بقيت الإشارة أخيرا إلى أن في تراثنا جهوداً مباركة وجب استئنافها في هذا الاتجاه لعلماء أفاضل هم بسبق حائزون تفضيلا مستوجبون من أمتهم ثناءها الجميل، كأمثال القاضي عياض السبتي في "شفائه" والشاطبي في "موافقاته" و "اعتصامه" وابن القيم في "زاد المعاد" والصالحي في "سبل الهدى والرشاد" وشاه ولي الله الدهلوي في "الحجة البالغة" وبديع الزمان سعيد النورسي في "رسائل النور" وعبد الحي الكتاني في "التراتيب الإدارية في الحكومة النبوية" وغيرهم ممن وجب البناء على جهودهم وتثميرها.

كل ذا دون فقدان الاستبصار بأنه رغم كل ما يمكن أن يبذل في مجال علم التأسي، فإنه يبقى مجالا متجددا بتجدد الأزمنة والأمكنة والأحوال والأعراف والعادات. ويرحم الله الإمام السهيلي إذ سَمّى سيرة رسول الله ﷺ: "الروض الأُنُف"[9].

والحمد لله رب العالمين. ■

(*) الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء – المغرب

الهوامش

(1) شعب الإيمان للبيهقي، ١٠٧/٥.

(2) مجمع الزوائد للهيثمي، ٢٠/٩؛ ابن ماجه، الأطعمة ٣٠.

(3) فالنبوة مؤسسة واحدة تتكامل لبناتها ويستدرك اللاحق منها بمنهجية التصديق والهيمنة ما كان في السابق ليخلص البناء في النهاية كاملا شاملا حجة ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (النساء: ١٦٥). ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

(4) البخاري، أحاديث الأنبياء ٤٨

(5) يلاحظ أن حالة السواء في كتاب الله نسق مفتوح آخذ بعين الاعتبار للخصوصيات والسياقات، وهو ما نرجو بعون الله تفصيل القول فيه في بحث لاحق.

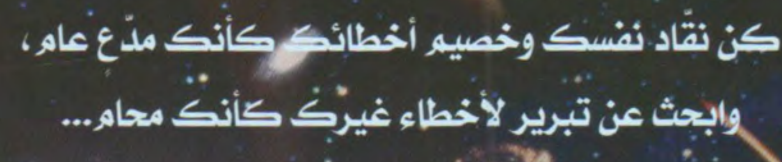
(6) فيض القدير للمناوي، ٢٢٤/١.

(7) وما أروع الصورة المشرقة التي يعرضها كتاب الله لمجتمع المدينة الشاهد وهو بعد في طور التكوين في مثل قوله تعالى من سورة الحشر ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (الحشر ٩-١٠). وفي سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والفرقان والطلاق والمجادلة وغيرها غرر بهذا الصدد لا تنتظر إلا التجلية المتجددة. ولعل تنبه الإمام مالك بن أنس الأصبحي ﷺ إلى هذه الحقيقة بشكل عام كان وراء افتراعه لأصل من أصول مذهبه المبارك، حيث جعل "عمل أهل المدينة" أصلا من أصول التشريع لما تضمنه هذا المجتمع الشاهد من هاديات لن تتكشّف كل حقائقها إلا عبر الزمن. كما علم أهل المدينة أن أمير المؤمنين عمربن الخطاب ﷺ لتنبُّهه إلى أهمية حفظ هذه الوحدة القياسية الاجتماعية في مرحلة التكوين حتى تثبت أركانها، كان قد نهى الصحابة رضوان الله عليهم عن مغادرة المدينة المنورة حتى يستتبّ البناء وتُحفظ الشهادة، فلم يتمكنوا من مغادرتها إلا بعد وفاته ﷺ.

(8) لأنه ﷺ جاء معلما للناس ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٥١). فوجب أن يؤخذ هذا الجانب التعليمي أيضا بعين الاعتبار حين التأسي.

(9) أي الروض البكر الذي لم يُدخَل قط.





***

الليل والنهار في القرآن الكريم

أ.د. زغلول النجار*

جاء ذكر الليل في القرآن الكريم اثنتين وتسعين مرة، وفي المقابل جاء ذكر النهار في القرآن الكريم سبعة وخمسين مرة. كما وردت ألفاظ "الصبح" و"الإصباح"، و"الفلق"، و"بكرة" ومشتقاتها بمدلول النهار في آيات أخرى عديدة، وجاءت كلمة "يوم" أحيانا بمعنى النهار في عدد من آيات القرآن الكريم.

وفي هذه الآيات يمن علينا ربنا تبارك وتعالى بتبادل الليل والنهار ويعتبرهما من آياته الكبرى، لأن في ذلك استقامة للحياة على الأرض، وعونا للإنسان على تحديد الزمن، والتأريخ للأحداث المتتالية. وبدون هذا التبادل بين الليل المظلم والنهار المنير تتوقف الحياة على الأرض، ويتلاشى إحساس الإنسان بمرور الزمن، وتتوقف قدرته على متابعة الأحداث والتأريخ لها.

والليل والنهار آيتان كونيتان عظيمتان من آيات الله في الخلق تشهدان على دقة بناء الكون، وعلى انتظام حركة الأرض حول محورها المائل بقدر محدد، وبدقة فائقة في مدار محدد حول الشمس، وما يستتبعه ذلك من تحديد لسنة الأرض، وتبادل للفصول المناخية، ومرور للشهور والأسابيع والأيام، وتعاقب الليل والنهار على نصفي الأرض.

التبادل المنتظم بين الليل والنهار

إن التبادل المنتظم بين الليل المظلم والنهار المنير على نصفي الكرة الأرضية هو من الضرورات اللازمة للحياة الأرضية، ولاستمرارية وجودها بصورها المختلفة حتى يرث الله تعالى الأرض ومن عليها. فبهذا التبادل بين الظلمة والنور يتم التحكم في توزيع ما يصل إلى الأرض من الطاقة الشمسية، وبالتالي يعين



على التحكـــم في درجات الحرارة والرطوبة وكميات الضوء في مختلف البيئـــات الأرضية؛ كما يعين على التحكم في العديد من الأنشطة الحياتية وغير الحياتية من مثل التنفس والأيض في كل من الإنسان والحيوان، وعمليات النتح والتمثيل الضوئي في النباتات؛ ويتم ضبط التركيب الكيميائي للغلافين الغازي والمائي المحيطين بالأرض، وضبط الكثير من دورات النشـــاط الأرضي من مثل دورة الماء بـــين الأرض والطبقات الدنيا مـــن غلافها الغازي، وحركات الرياح والسحاب في هذا الغلاف، وتوزيع نزول المطر منـــه (بتقدير من الله)؛ كما تتـــم دورة تعرية الصخور بتفتيتها، ونقل هذا الفتـــات أو إبقائه في مكانه من أجل تكوين التربة أو الرسوبيات والصخور الرسوبية وما بها من خيرات أرضية.

وبالإضافة إلى ذلك فإن في اختلاف الليل المظلم والنهار المنير تقسيما لليوم الأرضي إلى فترة للحركة والعمل والنشاط، وفترة للراحة والاســـتجمام والسكون. فالإنســـان محتاج إلى السكينة بالليل كي يخلد فيه إلى شيء من الراحة النفسية بالعبادة والتفكر، والراحة البدنية بالاسترخاء والنوم والإغفاء حتى يستعيد كلا من نشاطه البدني والذهني، ويستجمع قواه فيتهيأ للعمل بالنهار التالي وما يتطلبه ذلك من القيام بواجبات الاســـتخلاف في الأرض. وقـــد ثبت علميا أن أفضل النوم يكـــون بالليل، وأقله فائدة هو نـــوم النهار (فيما عدا فترة القيلولـــة). كما ثبت أن كثرة النوم بالنهار تؤثر في نشاط الدورة الدموية في جسم الإنسان، وتتهدده بالتيبس في العضلات، وتؤدي إلى تراكم الدهون وزيادة الوزن، وإلى العديد من صور التوتر العصبي والقلق النفسي.

وربما كان من مبررات التوجيه الرباني بالنوم بالليل والنشاط بالنهـــار أن طبقات الحماية التي أوجدهـــا ربنا تبارك وتعالى في الغلاف الغـــازي للأرض، ومن أهمها "النطق المتأينة" وما بها من "أحزمة الإشعاع" تتمدد بالنهار فتزداد قدراتها على حماية الحياة الأرضية مما يسمح للإنسان بالحركة والنشاط دون مخاطر. وهذه النطق تنكمش انكماشا ملحوظا بالليل، مما يقلل من قدراتها على الحماية؛ فينصح الإنسان بالركون إلى النوم والراحة حماية له من تلك المخاطر. وفي ذلك يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۞ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ (النبأ: ١٠-١١). قال تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (يونس: ٦٧).

من هنـــا كان التدبر في ظاهرة تعاقـــب الليل والنهار دعوة إلى الخلق كافة للإيمان بـــالله. ومن هنا أيضا جاءت الآيات التي تشـــير إلى تبادل الليل والنهـــار في صياغة معجزة. ومن جوانب ذلك الإعجاز إشارتها إلى أعداد من الحقائق الكونية التي لم تكن معروفـــة وقت تنـــزل القرآن الكـــريم، ولا لقرون متطاولة من بعد ذلك ممـــا يجزم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشـــرية، بل هو كلام الله الخالق الـــذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ويشـــهد للنبي الخاتم والرســـول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة الحقة والرسالة الخاتمة.

الشواهد العلمية المستقاة من تبادل الليل والنهار

١- التأكيد علـــى كروية الأرض: فإن تبـــادل الليل والنهار على نصفـــي الأرض وتعاقبهما وإيـــلاج كل منهما في الآخر، واختلافهما وتقليبهما، وإدبار أحدهما وســـفور الآخر، وإغشاء نـــور النهار بحلكة الليل، وتجلية حلكة الليل بنور النهار، وتكوير الليل على النهار، وتكوير النهار على الليل، كل ذلك إشـــارات ضمنيـــة رقيقة إلى كروية الأرض. فلـــو لم تكن الأرض كرة ما أمكن حدوث شـــيء من ذلك أبدا، وأبسطه تبادل الليل والنهار على نصفي الأرض.

هذه الحقيقـــة العلمية جاء بها القرآن الكـــريم من قبل ألف وأربعمائة من الســـنين في وقت ساد فيه الاعتقاد باستواء الأرض لدى كل الناس، على الرغم من إثبات عدد من قدامى المفكرين غير ذلك.

ونزول الآيات القرآنية العديـــدة بهذه الحقيقة الكونية الثابتة في الجزيرة العربية التي كانـــت في ذلك الوقت القديم بيئة بدوية بســـيطة ليس لها أدنى حظ من المعرفة العلميـــة ومناهجها ولا بالكـــون ومكوناته، لمما يقطع بأن القـــرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشـــرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أبدع هذا الكون بعلمه وحكمته وقدرته، والذي هو أدرى بصنعته من كل من هم سواه، وأن سيدنا ونبينا محمدا ﷺ كان موصولا بالوحي، ومعلما من قبل خالق السماوات والأرض.

٢- التأكيد على دوران الأرض حول محورها أمام الشمس: فلـــو لم تكن الأرض كروية، ولو لم تكن تلك الكرة تدور حول محورها أمام الشمس ما تبادل الليل والنهار. وهذا الدوران عبرت عنـــه الآيات القرآنية في أكثر من عشـــرين آية صريحة بتعبيرات ضمنية رقيقة، ولكنها مصاغة صياغة علمية دقيقة، تبلغ من الدقة والشمول والكمال ما لم يبلغه العلم الحديث.

وقد أنزلت هذه الآيات مؤكدة حقيقة دوران الأرض حول

محورها في وقت ساد فيه الاعتقاد بثبات الأرض ورسوخها، بمعنى عدم دورانها أو تحركها، وهو أمر معجز للغاية.

٣- التأكيد على أن سرعة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس في المراحل الأولى لخلق الكون كانت أعلى من سرعتها الحالية: وهذه الحقيقة لم يتوصل العلم المكتسب من إدراكها إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، وقد سبقها القرآن الكريم بأكثر من أربعة عشر قرنا، وذلك بالإشارة إلى هذه الحقيقة في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف:٥٤).

وإغشاء النهار بالليل جاء في القرآن الكريم أربع مرات (الأعراف:٥٤، الرعد:٣، الشمس:١-٤، الليل:١،٢). والمرة الوحيدة التي جاءت فيها الصفة ﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ أي سريعا، هي هذه الآية الرابعة والخمسون من سورة الأعراف، لأنها تتحدث عن بداية خلق السماوات والأرض؛ وهي حقيقة مدونة في هياكل الحيوانات وأخشاب النباتات بدقة بالغة، ولم يكن لأحد من الخلق إلمام بأية فكرة عنها إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين حين اكتشف العلماء أن تبادل الليل والنهار كان يتم في العقود الجيولوجية القديمة بسرعة فائقة جعلت من عدد الأيام في السنة عند بدء الخلق أكثر من ألفي يوم، وجعلت من طول الليل والنهار معاً أقل من أربع ساعات. وكان إبطاء سرعة دوران الأرض حول محورها بمعدل جزء من الثانية في كل قرن من الزمان آية من آيات الله في إعداد الأرض لاستقبال الحياة، لأن صور الحياة -وفي مقدمتها الإنسان- ما كان ممكنا أن تتلاءم مع هذه السرعات الفائقة لدوران الأرض، وكذلك مع قصر أو طول كل من الليل والنهار.

٤- التأكيد على سبح الأرض في مدارها حول الشمس: يعبر القرآن الكريم عن الأرض في عدد من آياته بالليل والنهار كما جاء في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (الأنبياء:٣٣)، وفي قوله عز من قائل: ﴿لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس:٤٠).

وذلك لأن كلا من الليل والنهار عبارة عن ظرف زمان وليس جسما ماديا، ولابد للزمان من مكان يظهر فيه. والمكان في هذه الحالة هو كوكب الأرض الذي يقتسم الليل نصفه، والنهار النصف الآخر في حركة دائبة وتبادل مستمر. ولو لم تكن الأرض كروية، ولو لم تكن تدور حول محورها أمام الشمس لما تبادل سطحها الليل والنهار في تعاقب مستمر. ولولا جري الأرض في مدارها حول الشمس ما تغيرت البروج. ولو لم تكن الأرض مائلة بمحور دورانها على دائرة البروج بزاوية مقدارها ٦٦،٥ درجة تقريبا ما تبادلت الفصول. ولولا علم الله بجهل الناس لتلك الحقائق في الأزمنة السابقة لأنزل الحقيقة الكونية بلغة صادعة قاطعة، ولكن لكي لا يفزع الخلق في وقت تنزل القرآن الكريم أشار إلى جري الأرض في مدارها المحدد لها حول الشمس بسبح كل من الليل والنهار. والسبح لا يكون إلا للأجسام المادية في وسط أقل كثافة منها. فالسبح في اللغة هو الانتقال السريع للجسم المادي بحركة ذاتية فيه من مثل حركات كل من الأرض والقمر والشمس وغيرها من أجرام السماء، كل في مداره وحول جرم أكبر منه. ويؤكد هذا الاستنتاج صيغة الجمع "كل في فلك يسبحون" التي جاءت في الآيتين، لأنه لو كان المقصود بالسبح الشمس والقمر فحسب، لجاء التعبير بالتثنية و"كلاهما يسبحان".

٥- التأكيد على الرقة الشديدة لطبقة النهار في الغلاف الغازي لنصف الأرض المواجه للشمس: وهي حقيقة لم يدركها الإنسان إلا بعد ريادة الفضاء، في منتصف الخمسينات وأوائل الستينات من القرن العشرين. وقد سبق القرآن الكريم هذا الكشف العلمي بأربعة عشر قرنا وذلك في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ (يس:٣٧).

وهذه الآية الكريمة تؤكد أن الأصل في الكون الظلام، وأن طبقة النهار في الغلاف الغازي المحيط بنصف الأرض المواجه للشمس، والتي تتحرك باستمرار لتحل محل ظلام الليل بإشراق الفجر، هي طبقة بالغة الرقة لا يكاد سمكها أن يتعدى ٢٠٠ كم فوق مستوى سطح البحر. وإذا نسبنا هذا السمك إلى المسافة بين الأرض والشمس، وهي مقدرة بحوالي المائة وخمسين مليون كم، كانت النسبة واحدا إلى سبعمائة وخمسين ألفا تقريبا. وإذا نسبناه إلى نصف قطر الجزء المدرك من الكون، والمقدر بأكثر من اثني عشر بليون (ألف مليون) سنة ضوئية اختفت هذه النسبة تماما أو كادت. ومن هنا تتضح ضآلة سمك الطبقة التي يعمها نور النهار، كما يتضح عدم استقرارها لانتقالها باستمرار من نقطة إلى أخرى على سطح الأرض مع دورانها حول محورها أمام الشمس؛ ويتضح كذلك أن تلك الطبقة الرقيقة من نور النهار تحجب عنا ظلام الكون الخارجي، لأن الذين تعدوا طبقة النهار

مــن رواد الفضاء رأوا الشـــمس في منتصف النهار قرصا أزرق في صفحة ســوداء. وبهذه المعلومات التي اكتشفت منذ أقل من نصف قرن تتضح روعة تشبيه القرآن الكريم انسلاخ نور النهار عن ظلمة كل من الليل والكون بســـلخ جلد الذبيحة الرقيق عن كامـــل بدنها. وهذا يؤكد أن الظلمة هي الأصل في هذا الكون، وأن النهار ليس إلا ظاهرة نورانية عارضة رقيقة جدا، لا تظهر إلا في الطبقات الدنيا من الغلاف الغازي في نصفه المواجه للشمس؛ وبواســـطة دوران الأرض حول محورها أمام ذلك النجم ينسلخ النهار تدريجيا أمام ظلمة ليل الأرض والتي تلتقي بظلمة السماء.

٦- التأكيد على دقة الحساب الزمني بواسطة كل من الليل والنهار والشمس والقمر: من المعروف أن السنة الهجرية هي سنة شمسية/قمرية، لأن هذه السنة تحددها دورة الأرض حول الشمس دورة كاملة تتمها في ٣٦٥,٢٥ يوما تقريبا، وأن هذه السنة تقسم إلى اثني عشر شهرا بواسطة دوران القمر حول الأرض؛ كما يقسم الشهر إلى أسابيع وأيام وليال بنفس الواسطة. وقد تقسم الشهور بواسطة البروج التي تمر بها الأرض في أثناء جريها في مدارها حول الشـــمس، كما تدرك الأيام بتبادل كل من الليل والنهار، ويقسم النهار إلى وحدات أصغر بواسطة المزولة الشمسية؛ ومن هنا كان القســـم القرآني بالليل والنهار والشـــمس والقمر في خمس آيات (الأنعام:٩٦، إبراهيم:٣٣، النحل:١٢، الأنبياء:٣٣، فصلت:٣٧).

٧- الإشـــارة إلى أن ليـــل الأرض كان في بدء الخلق ينار بعدد من الظواهر الكونية: وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ (الإسراء:١٢).

ويستشف من هذه الآية ظاهرة الشفق القطبي وأطيافه والتي تعرف أيضا باســـم ظاهرة الأنوار القطبية أو باسم ظاهرة فجر الليـــل القطبي؛ وهي ظاهرة نورانية تـــرى بالليل في سماء المناطق القطبية وحول القطبية، وتتكون نتيجة لارتطام الأشـــعة الكونية الأولية التي تملأ فســـحة الجـــزء المدرك من الكـــون على هيئة الجسيمات الأولية للمادة بالغلاف الغازي للأرض، مما يؤدي إلى تأينه وإصدار أشـــعة كونية ثانوية. ونتيجة لذلك تتصادم الأشعة بشـــحناتها الكهربية المختلفة مع كل من أحزمة الإشعاع ونطق التأيـــن في الغلاف الغازي للأرض وتفريغ شـــحناتها فتوهجها. والجســـيمات الأولية للمادة متناهية في الدقة، وتحمل شـــحنات كهربية عالية، وتتحرك بسرعات تقترب من سرعة الضوء، و لم تكتشف إلا في ســـنة ١٩٣٦. والأشعة الكونية تتحرك بمحاذاة خطوط المجال المغناطيســـي للأرض والتي تنحني لتصب في قطبي الأرض المغناطيســـين فتؤدي إلى تأين الغلاف الغازي للأرض، ومن ثم إلى توهجه.

ومن الثابت علميا أن نطق الحماية المتعددة في الغلاف الغازي للأرض من مثل نطاق الأوزون، ونطق التأين، وأحزمة الإشعاع، والنطـــاق المغناطيســـي للأرض لم تكن موجـــودة في بدء خلق الأرض. ولذلك فقد كانت الأشعة الكونية تصل إلى المستويات الدنيـــا من الغلاف الغازي للأرض فتؤدي إلى توهجه ليلا حول كافـــة الأرض، وبعد تكون نطق الحمايـــة المختلفة أخذت هذه الظاهـــرة في التضاؤل التدريجي حـــتى اختفت، فيما عدا مناطق محدودة حول القطبين، تبقي شـــاهدة علـــى أن ليل الأرض في المراحل الأولى من خلقها كان يضاء بوهج لا يقل في شـــدته عن نور الفجر الصادق.

فسبحان الذي أنزل من قبل أربعة عشر قرنا قوله الحق على لسان نبيه الخاتم: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَـةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ (الإسراء:١٢).

هذه الشـــواهد العلمية المســـتقاة من تبادل الليل والنهار بدء بتأكيد كرويـــة الأرض، ثم دورانها حول محورهـــا، وتباطؤ هذا الـــدوران مع الزمن، وجريها في مدارها المحدد حول الشـــمس، والرقة الشديدة لطبقة النهار، والدقة الفائقة لحساب الزمن بواسطة تتابع كل من الليل والنهار والشمس والقمر، وأن ليل الأرض كان يضاء في بدء الخلق بوهج لا يقل في شدته عن نور الفجر الصادق، وأن من بقايا هذا الوهج القديم ظاهرة الفجر القطبي...

هذه الشـــواهد لم يصل الإنســـان إلى إدراكها إلا في العقود المتأخرة من القرن العشـــرين. وورودها في كتاب الله الذي أنزل على نبي أميّ ﷺ في أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، ومن قبل أربعة عشـــر قرنا لمما يقطع بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخاتم والخالد، وأن النبي والرسول الخاتم الذي تلقاه كان موصولا بالوحـــي، ومعلما من قبل خالق الســـماوات والأرض، ولذلك وصفه ربه ســـبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ۞ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ (النجم: ٣-٥). ■

(*) أســـتاذ علوم الأرض ورئيس لجنة الإعجاز العلمي بالمجلس الأعلى للشـــؤون الإسلامية / مصر.

لزومية

أ.د. حسن الأمراني*

أختـــاهُ! إنّ العيش عيـــشُ الآخرة
فهـــي المعـــاني والمغـــاني الزاخرة

فتأنّقـــي بريـــاض ذكْـــرٍ مونـــقٍ
وتألّقـــي شِـــعْرا.. لآلـــئَ فاخرةً

شـــعْرًا إلـــهيّا يـــؤانســـني إذا
ما صرتُ -يا أختي- عِظامًا ناخرة

ما هـــذه الدنْيـــا وإن عرضت لنا
صورَ الجمال سوى فُصولٍ ساحِرة

بحـــرٌ خضـــمّ مَوْجُـــه متَلاطـــمٌ
والنـــاسُ فيـــه أمْنيـــاتٌ ماخـــرة

والحـــبّ خيْرُ الزّاد لـــو علم الفتى
وفعالـــه الموفـــور نعْـــم الباخـــرة

مـــاذا علينـــا لـــو ركبْنـــا عُرْضَه
شـــوقًا، ووِجهتنا نعيـــمُ الآخرة؟!

(*) رئيس تحرير مجلة المشكاة / المغرب

مدارس ودروس

من "دايتون" الأمريكية إلى "أبنت" التركية

أ.د. إبراهيم البيومي غانم*

قالوا قديماً إن في السفر فوائد كثيرة تظهر في جوانب مختلفة من حياة المسافر، منها زيادة رزقه، واتساع علمه، وتقوية صحة جسمه، وسكينة نفسه، ونضج خبرته، وكثرة معارفه وأصدقائه، وتجديد الحنين إلى أهله ووطنه والديار التي كان فيها مسقط رأسه. وقد جمع الشاعر بعض تلك الفوائد في قوله:

تغرّبْ عن الأوطان في طلب العلا
وسافر ففي الأسفار خمس فوائدِ
تفريج هم واكتساب معيشة
وعلم وآداب وصحبة ماجد.

فوائد الأسفار

ولكن يبدو أن فوائد السفر الحديث في أيامنا تختلف في عددها وفي نوعها عن فوائد السفر القديم الذي عرفه البشر في الأيام الخالية. فهي أكثر منها عدداً وأعمق منها أثراً. وهذا هو ما تبين لي بعد سفرتين متتابعتين: الأولى كانت من يوم ٢٢ يونيو حتى ٣ يوليو ٢٠٠٦ إلى مدينة "دايتون" في ولاية "أوهايو" الأمريكية للمشاركة في الملتقي السنوي لـ "كاترنج فاونديشن" (Kettering Foundation) حول "الديمقراطية التداولية"، وبرامج علمية أخرى مصاحبة لهذا الموضوع، ومنها لقاء المجموعة العربية لبحوث وقياسات الديمقراطية. أما الرحلة الثانية فقد كانت من يوم ٩ حتى ١٧ يوليو ٢٠٠٦ إلى إسطنبول، ومنها إلى منتجع "أَبَنْت" (Abant) بمدينة "بُولُو" (Bolu) التركية -على مسافة ١٥٠ كلم شمال العاصمة أنقرة- وذلك للمشاركة في منتدى "أَبَنت" حول "سياسات العولمة ومستقبل الشرق الأوسط".

أما المدة التي استغرقتها في الرحلتين فكانت ثلاثة أسابيع، قضيتُها مناصفة بين أمريكا وتركيا. وكان من تقدير الله سبحانه -وبدون سابق ترتيب مني- أن أشارك في ندوات علمية تكاد تكون متماثلة في الرحلتين، وأن أزور بعض المؤسسات والهيئات الاجتماعية والثقافية التي تنتمي إلى المجتمع المدني في الحالتين؛ إلى جانب التجوال الحر ورؤية بعض المعالم الأثرية والمزارات

السياحية في بعض المدن الأمريكية هناك في أقصى غرب العالم، وفي بعض المدن التركية هنا في قلب الشرق، وتحديداً في إسطنبول التي كانت يوماً عاصمة الشرق كله.

هموم الأسفار

بالنسبة لفائدة "تفريج الهم"، فإن الذي حدث معي هو العكس في سفرتي إلى الولايات المتحدة الأمريكية؛ إذ إن همومي زادت ولم تنفرج! وأول ما وجدته هو أنني أوجست في نفسي خيفة عندما وطئت قدمي أرض مطار "سينسيناتي" في وسط غرب الولايات المتحدة الأمريكية. كانت هذه هي أول رحلة لي إلى أمريكا، وأنا طبعاً قادم من بلد شرق أوسطي قديم، إلى بلد غربي متطور علمياً وتكنولوجياً، وشعرت ساعتها بأنني في حيرة من أمري؛ فمطار سينسيناتي هائل الحجم، هائل التنظيم، هائل النظافة، يعجّ بالمغادرين وبالقادمين، وكلها أمور أثارت في نفسي خواطر مختلطة بين الإعجاب والضيق، وكنت كلما نظرت إلى النظافة والتنظيم والانضباط والسهولة في الحركة داخل المطار في سينسيناتي، وقارنت ذلك كله بما رأيته وعرفته ويعرفه كثيرون عن مطارات شرق أوسطية -ومنها بعض مطارات بلادي- زاد اختلاط الإعجاب بالضيق في نفسي، وضاق صدري ولم ينطلق لساني أكثر من مرة، فلم أردّ على تعليقات أحد رفقائي في الرحلة كان يحاول لفت نظري إلى بعض تلك المعاني التي جالت في خاطري.

ثم جاء مشهد إجراءات الأمن والسلامة التي يخضع لها الجميع، مع قليل من التمييز السلبي ضد ذوي الملامح الشرق أوسطية أمثالنا وغير الأمريكيين عموماً، ولكن التعامل مع الجميع كان مهذباً ولم يخل من بعض الدعابات.

لم تفارقني همومي التي حملتها من بلدي، بل إن تلك الهموم كانت تزيد ولا تنقص ناهيك عن أن تنفرج كلما مر يوم عليّ في "دايتون" أو في ضواحيها. وهمومي التي أتحدث عنها هي هموم التخلف الذي نعيشه في بلادنا، وهموم حالة الفوضى غير الخلاّقة التي تسحق آدمية أغلبية أبناء شعوبنا العربية والإسلامية ويصادفونها في معظم زوايا حياتهم. وجدت أن ثمة فجوة هائلة بيننا وبينهم فجوة أكبر بكثير مما كنت أتصور وأعرف من خلال قراءاتي ومعرفتي عن بُعد بالمجتمع الأمريكي. كنت أمنّي نفسي في أول مرة أسافر فيها إلى الولايات المتحدة بأن تكون الفجوة بيننا وبينهم أقلّ عمقاً وأضيَق نطاقاً، وأن يكون عبورها مقدوراً عليه في عدد معقول من السنين عقد أو عقدين مثلاً، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه، وما رأيته زاد همومي ولم يفرجها.

مشاهد البهجة في مطار إسطنبول

وإذا كانت أول فوائد السفر القديم قد ضاعت مني في رحلتي إلى أمريكا في الغرب، فقد أدركتُها في سفري التالي إلى تركيا في الشرق. كان المشهد الأول مبهجاً في مطار إسطنبول: مطار حديث على آخر صيحة وقد هبطت الطائرة في المطار الجديد، وهو كبير الحجم، فائق النظافة، دقيق التنظيم والانضباط وسهولة الحركة، وإجراءات الأمن والسلامة والتفتيش تتم بيسر وسهولة، ويخضع لها الجميع دون أدنى تمييز بين المسافرين، لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لتركي على أوربي أو أمريكي. ولا تستغرق عملية تدقيق الجوازات وتأشيرات الدخول سوى بضع دقائق. وما كدنا نخرج من بوابة الخروج حتى وجدنا في استقبالنا ثلّة من الفتية ذوي الوجوه البشوشة، والأيدي الممدودة لمساعدتنا في حمل الحقائب، مع كلمات الترحيب بلغة عربية رشيقة تحبها وتتمتع بسماعها من أفواه شباب أتراك تفانَوا في خدمتنا من أول يوم حتى آخر لحظة. قبل مغادرتنا إسطنبول حتى كدنا نبكي من فرط كرمهم وتواضعهم.

كان هذا المشهد الأول في تركيا كفيلاً بأن يبدد بعض الهموم المختزنة من رحلتي إلى "دايتون"، فها هم أولاء أناس من بلد مسلم وشرق أوسطي عريق مثل تركيا يقدّمون نموذجاً لا يقل في روعته عما شاهدناه في أمريكا من النظام والنظافة والانضباط وسهولة الحركة وكفاءة العمل في مرفق حيوي وواجهة من واجهات الدولة. ويوماً بعد يوم في تركيا من إسطنبول إلى "بورصة" إلى "بولو" ومنتجع "أبنت"، كانت همومي تنفرج شيئاً فشيئاً؛ وذلك بعد أن أخذَنا أصحاب الدعوة من تلامذة الأستاذ "محمد فتح الله كولن" في جولة سياحية وعلمية، رأينا فيها عدداً من المشروعات الحديثة فائقة الروعة في شكلها ومضمونها، أو في مبانيها ومعانيها: مدرسة وجامعة ومستشفى وصحيفة وتلفزيون؛ كما رأينا فيها سلسلة من الآثار التاريخية النادرة وفي مقدّمتها المساجد والقصور التي تشتهر بها تركيا عامة، وإسطنبول خاصة؛ والمتاحف وأهمها متحف "طوب قابي" الذي يضمّ آثار العهد العثماني.

شخصية الأستاذ "فتح الله كولن"

والأستاذ "فتح الله كولن" هو من الشخصيات ذات الأثر الواسع داخل تركيا وخارجها، ويحتاج إلى أكثر من مقالة لتعريف القارئ

العربي به وبأفكاره ومنهجه في الإصلاح. وهو ممن استوعب منهج بديع الزمان النورسي في فهم الإسلام، وقد استطاع أن يقدم رؤية خاصـــة به في الإصلاح والدعوة، وله عديد من المقالات والمؤلفات القيمة، كما أن له تياراً واسعاً المحبين له والمتأثرين برؤيته الحضارية، منهم نســـبة مؤثّرة من رجال الأعمال والأثرياء الذين يتولون تمويل المشروعات الخيرية التي أكد الأستاذ على أهميتها وحث على تفعيلها طوال حياته، وما أكثرها، وذلك من خلال نظام الوقف المنتشـــر على نطاق واســـع في تركيا، حتى إن لكل مرفق أو خدمة "وقفاً" يوفر المال اللازم لتمويل المشـــروعات والبرامج التي يقدمها، ويغْني تلك المؤسســـات والمشروعات عن ذل الحاجة إلى التمويل الأجنبي الذي ابتليتْ به كثير من بلداننا العربية.

نعود إلى بقية فوائد السفر القديم وهي "اكتساب العلم والآداب وصحبة الماجد"، وقد حصلت من ذلك قدر استطاعتي. وقد حفزتني الرحلتـــان إلى أمريكا وإلى تركيا إلى ضرورة إعادة النظر فيما قاله الســـابقون عن فوائد السفر القديم، واكتشفتُ فوائد جديدة تزيد كثيراً على ما ذكره قدماء المســـافرين. ومما اكتشـــفته: اكتساب الخبرة، ونقد الذات، وإدراك القواســـم المشتركة بين بني آدم أينما كانوا وحيثما حلوا، وتبادل الدروس الإنســـانية، ومقارنة المدارس التعليمية والتربوية بين الشرق والغرب، وغير ذلك مما يطول شرحه ويصعـــب حصره هنا. ووجدت أن لكل فائدة مدرســـة تنتجها، ودروساً تعبّر عنها. ومن الموافقات الحسنة وجود أوجه شبه مثيرة بين مدارس ودروس السفر إلى دايتون في أمريكا، ومدارس ودروس السفر إلى "أبنت" في تركيا، وهذه هي خلاصتها:

مدرسة في التربية والتعليم، ودرس في العطاء

على الجانب الغربي وفي "دايتون" كانت المدرســـة -بالمعنى الواسع لكلمة مدرســـة- هي مؤسســـة "كاترنج" التي ترعى عديداً من البرامج التعليمية والتدريبية والبحثيـــة، وتقوم بتمويلها من عوائد وقفيتها الخاصة، وتركّز منذ عقود على قضية أساسية هي ما تطلق عليه "الديمقراطية التداولية"، أو "الديمقراطية التشاورية". أما درس العطاء فقد لمســـتُه من أغلب العاملـــين في "كاترنج" بدءً بريئس المؤسســـة ديفيد ماثيوس، مروراً بمســـاعديه بمختلف مستوياتهم. حقيقة وجدتهم يعملون بروح الفريـــق، وبدافع قوي لا يمكن أن ينبع إلا من الإيمان بالرســـالة التي تقوم بها المؤسسة في خدمة العلم والمعرفة بشكل عام، وفي تقدم المجتمع الأمريكي بشكل خاص.

أمـــا على الجانب الشـــرقي وفي "إســـطنبول"، فقد كانت المدرسة -بالمعنى الواسع أيضاً- عبارة عن سلسلة من المشروعات والمؤسســـات التعليمية والبحثية والثقافية، تعتمد في تمويلها على رَيع وقفيات -أيضاً كما في حالة كاترنج الأمريكية- خصصها رجال أعمال ومحســـنون أتراك، أغلبهم من تلامذة الأستاذ "فتح الله كولن". هي مدرسة ذات طابع مختلف عن مدرسة "مؤسسة كاترنج"، ولكنها تقوم بمهمات مماثلة في نشر العلم وإنتاج الثقافة وبناء مجتمع المعرفة، وتسعى للإسهام بجدية بالغة في تقدم المجتمع التركي خاصة، وفي إســـعاد الإنســـانية عامة. أما درس العطاء فقد لمســـته، كما لمســـه جميع رفقائي في الرحلة، في الأداء رفيع المســـتوى، بالغ الإتقان لكل من قابلناهم في تلك المؤسســـات، وليس ثمة مصدر يدفعهم لذلك سوى الإيمان العميق بالرسالة التي يؤدونها. وكان لافتاً للنظر أنك لا تســـتطيع أن تحدد أيهما أكثر روعة: العنصر البشـــري العامل في تلك المؤسسات من الشباب والشابات، أم تلك المؤسســـات نفسها. وذات مرة قلت لأحد رفقاء الســـفر: ما أروع هذا المبنى، فرد قائلاً: الأروع هم هؤلاء البشـــر المتفانون في عملهم. قلت: لن نختلف كثيراً؛ فمبنى رائع كهذا لا بد أن يشيّده ويديره أناس رائعون كهؤلاء.

أحد المحســـنين الذين قابلناهم هو "الحاج علي كَرْوَانْجي"، رجل أعمال عصامي، لفت نظره أن الأســـتاذ "فتح الله كولن" يحرص بإصرار على أن لا تمس يدُه أموالَ المتبرعين لأعمال الخير التي يدعوهم لها، فقرر أن يقف ثروته وحياته للأنظمة الإنسانية التي يشجع عليها؛ فبنَى سلسلة بديعة من المدارس ومسجداً أنيقاً إذا دخلتـــه تحب أن تبقى فيه ولا تخرج منه، من فرط الراحة التي تشعر بها وأنت داخله. وأمثال الحاج "علي كروانجي" كثيرون في تركيا، وبفضل عطائهم نشأت مؤسسات ومشروعات حضارية بكل ما تحمله كلمة "حضارة" من معنى.

مدرسة في الأخلاق ودرس في التسامح الإنساني

على الجانب الغربي وفي "إنديانا" هذه المرة كانت مدرسة الأخلاق -بالمعنى الواسع لكلمة مدرســـة كذلك- هي جامعة "نوتردام" الكاثوليكيـــة. والحقيقة أنني لم أتوقـــع وجود مثل هذه النـــزعة الأخلاقية من حيث الأصل في بلد مثل أمريكا. وجامعة نوتردام هي مـــن الجامعات المحافظة بكل المعاني التي تشـــير إليها كلمة "المحافظة". وقد أتيح لي أن أطلـــع عن كثب على أحد المعاهد التابعة لها، وهو "معهد كروك"، وتحدثتُ مع مديره "ســـكوت أبلـــبي"، ومع عدد من الباحثين والموظفين، وكان أكثر ما شـــدّ

انتباهي هو المناخ الأخلاقي الذي يعمل فيه الجميع، استناداً إلى قاعدة قوية من التعاليم الدينية الكاثوليكية، ربما كان أفضل مَن يجسدها هو مدير معهد كروك الدكتور القسّ سكوت أبلبي. قال لي: "لو خُيرت بين أن أشغل أعلى منصب في الدنيا، وبين البقاء في هذه الجامعة لاخترت البقاء في جامعة نوتردام". أما الدرس الأكثر تأثيراً فيمن يدخل هذه المدرسة فهو درس التسامح الإنساني، الذي عبرتْ عنه ليس فقط كلماتُ من قابلناهم في المعهد، ومشاعرُهم الودودة تجاهنا، رغم علمهم أننا شرق أوسطيّون، وإنما أيضاً وجودُ أناس مختلفي المواقف من الدين ذاته، ومن الكاثوليكية نفسها التي هي جزء من اسم جامعة نوتردام. فهناك مسلمون، ويهود، ومسيحيون، ودهريون"، وكأن لسان الحال يردد قول الله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون:٦)، وكذلك عبرتْ عن هذه النزعةُ الإنسانية المشروعات والبرامج البحثية والتعليمية التي تستهدف في أغلبها دعم قيم الحوار والسلام والتسامح بين مختلف الشعوب والأمم.

أما على الجانب الشرقي، وفي مختلف المشروعات التي زرناها في إسطنبول وفي مدينة "بُورْصَة"، تجلّت مدرسة الأخلاق بأبهى ما يكون التجلي؛ وإذا قارنّاها بمدرسة "نوتردام" الأمريكية التي أومأْنا إليها، سنجد أن مدرستنا في تركيا أعمق جذوراً، وأكثر غصوناً، وأصدق قيلاً، وأتقن فعلاً؛ فهذه جامعة، وهذا مستشفى، وتلك صحيفة، وهذه مدرسة ابتدائية، وهذا تلفزيون... جميعها في إسطنبول، وبعضها له أفرع خارج إسطنبول، وكلها مؤسسة على أحدث تكنولوجيا العصر؛ حتى إنها تُبهر الزائر وتجعله لا يصدّق ما تراه عيناه، وربما يشعر أنه في حلم وليس في "علم" يراه رأْي العين، فلا يملك إلا أن يقول "ما شاء الله لا قوة إلا بالله"، ولا يملك إلا أن يدعو للقائمين على تلك المؤسسات بالسداد والتوفيق، ولا يملك إلا أن يتحسر على أحوال بلاده المتردية -كما هو حالنا- في أغلب المؤسسات والمرافق الحكومية وغير الحكومية. والأمر المهم في كل ذلك هو أن تلك المشروعات على تنوعها نبعت من أصل واحد هو الروح الإسلامية، والأخلاقية الإسلامية، التي تحض في أحد مبادئها على حتمية أن يُتقن الإنسان عمله، وذلك انطلاقاً من قول الرسول الكريم ﷺ : "إن الله يحب أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه"[١]، وقد شهدنا بما علمنا ورأينا أن هؤلاء المسلمين الأتراك قد أتقنوا ما عملوه من مشروعات عالية الجودة، فائقة التقدم، وافرة النفع للمجتمع والدولة، للمسلمين ولغير المسلمين، دون تفرقة، أو تمييز. وفي كل مؤسسة من تلك المؤسسات لمسنا درس التسامح الإنساني في عمقه الإسلامي. ومن أفضل التعبيرات عن هذا الدرس ما قاله بعفوية أحد المسؤولين عن تلك المؤسسات وهو: "إذا تحدث العالم عن الإنسان، فنحن المسلمين أول من يحب البشر، ونحب الكون؛ لأن الله خلق هذا وذاك، وعلينا أن نتحاور مع الآخر بهذه الروح، حتى وإن كان يفكر بطريقة مختلفة عنّا"، و"إن الغاية من هذه المؤسسات هي تنشئة أجيال صالحة تعمل لخير الإنسانية". أنا قرأتُ كل تلك المشروعات الراقية باعتبارها تطبيقاً لمدرسة الأخلاق الإسلامية العملية، وباعتبارها درساً في التسامح الإسلامي الإنساني، وهذا هو لب الرسالة الإسلامية؛ إذ ليست تعاليم الإسلام مجرد كلام نظري، بل هي قول وعمل، وإيمان وتطبيق، وهذا ما رأيناه بأمّ أعيننا هناك في تركيا، ونود أن نرى مثله في بقية البلدان العربية والإسلامية.

مدرسة في المجتمع المدني ودرس في المشاركة

هناك في "دايتون" اطلعنا على مدرسة متكاملة في "المجتمع المدني"، أو ما يمكن أن نسميه "السياسة المدنية"، بالمعنى الذي قصده الفارابي وابن خلدون وغيرهما من أعلام الفكر الإسلامي، وهذا المعنى يركز على التدبر في كيفية تسيير شؤون الناس اليومية بأفضل طريقة تكفل تحقيق مصالحهم المادية والمعنوية معاً. هذا هو جوهر معنى السياسة المدنية، أو المجتمع المدني كما قدمه علماؤنا السابقون، ويطبقه الأمريكيون فيما بينهم وعلى مستوى قضاياهم الداخلية على الأقل. وهذا هو ما رأيته وأدركته من خلال مشاركتي في الملتقى السنوي لمؤسسة كاترنج حول "الديمقراطية التداولية". وسواء اقتبسوا هذا المعنى المدني للسياسة من عُلمائنا أم توصلوا إليه باجتهادهم فالنتيجة واحدة، وهي أنهم جادّون في البحث عن كيفية تفعيله في واقعهم الاجتماعي، وكيفية إعادة المواطنين إلى المجال العام والمشاركة في قضايا هذا المجال والابتعاد عن العزلة.

وقد دأبتْ مؤسسة كاترنج منذ خمسة وعشرين عاما على تنظيم حلقات نقاش حول قضايا الديمقراطية، واستطاعت أن تقدم للمجتمع الأمريكي مجموعة من الإسهامات المهمة النظرية والتطبيقية، التي استهدفت حل المشكلات التي تعترض المواطنين في علاقاتهم بالسلطة والسياسة والشؤون العامة من جهة، وبناء ثقافة السياسة المدنية وتفعيلها على أرض الواقع من ناحية أخرى، وهذا هو جوهر "درس المشاركة" الذي جعلته مؤسسة كاترنج نصب

عينها منذ عدة عقود. ويتضح من مراجعة البرامج والمشروعات البحثية التي ترعاها كاترنج أنها تشعر بأن الديمقراطية الأمريكية في خطر نتيجة تزايد حالة العزلة والاغتراب بين المواطنين، وعدم الاهتمام بالشؤون العامة، ومن ثم اجتهدت المؤسسة في البحث عن الطرق الكفيلة باستدعاء دور الشعب من جديد، وإعادة اكتشاف المواطنة، وبالتالي ترميم الثقافة المدنية التي تمهد لإشراك الشعب في الحياة السياسية من جديد.

وفي "أبنت" التركية اطلعنا على برامج ومشروعات مدرسة أخرى في "المجتمع المدني" بالمعنى السابق شرحه، وشاركنا في لقائها الدوري للحوار والتداول في الشئون العامة التي تهم تركيا وتهم غيرها من بلدان منطقة الشرق الأوسط. وقصة "منتدى أَبَنْتْ" كمؤسسة من مؤسسات المجتمع المدني بدأت قبل نحو عشر سنوات بهدف لمّ شَمل المثقفين والأكاديميين الأتراك من كل الاتجاهات السياسية والفكرية والمذهبية، والانتقال من حالة الاحتراب والصراع إلى حالة السلم الاجتماعي والتعاون، وبهدف تقوية الثقافة المدنية السلمية داخل المجتمع التركي، ثم اتسعت اهتمامات المنتدى بعد ذلك إلى خارج تركيا من أجل تحقيق الأهداف ذاتها ولكن على مستوى عالمي. ويعتبر "منتدى أبنت" أحد المؤسسات التابعة لـ"وقف الصحفيّين والكتّاب" الذي كان قد تأسس بمبادرة من الأستاذ "فتح الله كولن" سنة ١٩٩٤.

سمعنا من رئيس وقف الصحفيين والكتاب قصة نشأة الوقف، وكيف تطورت أهدافه ونمت مشروعاته، وكيف انبثقت منه فكرة منتدى "أبنت" للحوار، وكيف أضحى المنتدى مستقلاً في إدارته وفي نشاطاته عن وقف الصحفيين والكتاب. وتبين أن الفكرة الأساسية الموجهة لهذا المنتدى هي فكرة "الحوار المدني"، وهي من أفكار الأستاذ "فتح الله كولن" من أجل تكوين قاعدة صلبة للمشاركة في الشؤون العامة، والتوصل إلى أفضل الحلول للمشكلات التي تواجه المجتمع التركي، ثم اتسعت آمال أصحاب المنتدى إلى النطاق العالمي، وأضحى المنتدى "نموذجاً" يبرهن على إمكانية التعايش بين المختلفين، والتعاون فيما هو متفق عليه، واحترام وجهات نظر المخالفين، مع إعمال التفكير النقدي فيها لتوسيع القواسم المشتركة وتضييق مواطن الاختلاف قدر المستطاع.

درس "المشاركة" في الشأن العام انطلاقاً من مفهوم المجتمع المدني والسياسة المدنية، عبّر عنه بعض المشاركين في منتدى "أبنت"، ولكن بطريقة مختلفة عن تلك التي وجدناها عند مؤسسة كاترنج في دايتون الأمريكية؛ هناك في دايتون كان همهم الأساسي هو كيف يمكن تقوية الثقافة المدنية الكفيلة باستعادة المواطنين إلى السياسة وشؤون المجال العام، وكيف يمكن ترميم الديمقراطية الأمريكية بعد أن أصابها الوهن وتهدمت بعض دعائمها. أما في "أبنت" فقد كان الهم الأساسي هو كيف يمكن بناء المجال العام، وكيف يمكن تهيئة البنية الأساسية للممارسة الديمقراطية، أو الشورية. كان ذلك واضحًا في الملتقيات الماضية للمنتدى، وحتى في الملتقى الأخير في يوليو الماضي -رغم أن موضوعه كان عن سياسات العولمة وانعكاساتها على مستقبل الشرق الأوسط- وقد عبر عن هذا الدرس بوضوح وعمق في آن واحد البروفسور "كمال كَارْبَات" -وهو أحد أشهر أساتذة التاريخ في تركيا- وذلك عندما شدد في كلمته بالمنتدى على أن لب المشاكل التي تعاني منها بلدان الشرق هي "أن المجال العام في هذه البلدان لم يتطور، ولذلك اتسعت الفجوة بين الشعوب والحكام، وما لم يتطور المجال العام، وينخرط فيه أكبر عدد ممكن من المواطنين، فسوف يظل الاستقرار بعيد المنال، وسوف يظل التحديث ضرباً من الخيال". هكذا تحدث كمال كَاربات، والحق معه فيما قال. هناك مشوار طويل أمام مجتمعاتنا في الشرق لتعلم درس المشاركة وتحويله إلى ممارسة مؤسسية، وهذا أحد أهم الدروس التي تجتهد فيها "مدرسة المجتمع المدني في تركيا"، ويسهم فيها منتدى أبنت بسهم وافر.

بعد الرحلتين؛ إلى الولايات المتحدة الأمريكية في الغرب، وإلى تركيا في قلب الشرق، وبعد أن تبين ما هنالك من هموم مشتركة، وجهود متشابهة تسعى للتغلب على المشكلات التي تعاني منها الإنسانية المعاصرة، قلت: لا بد من إعادة النظر في قول كيبلنج -شاعر الإمبراطورية البريطانية العجوز- "الشرق شرق، والغرب غرب، وهيهات أن يلتقيا"، فهما قد يلتقيان، وقد بدءا يلتقيان في بعض الحالات، حتى وإن حاول محترفو السياسة الإبقاء على الفرقة بين الشعوب والأمم. فمن مصلحة البشرية أن يلتقي بنو آدم جميعاً؛ كانو في الشرق أم في الغرب، في الشمال أم في الجنوب. وقبل أكثر من خمسة عشر قرناً قرر الإسلام العظيم المساواة بين البشر جميعاً، وأكّد أن كلنا لآدم وآدم من تراب، وأنه لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح. ■

(*) أستاذ العلوم السياسية - جامعة القاهرة / مصر.

(1) مجمع الزوائد، ٩٨/٤.

رعهج الروحي في حياة الأستاذ سعيد النورسي

أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي*

قالوا: "كان التصوف في صدر الإسـلام مسمّى لا اسم له، ثم أصبح اليوم اسماً لا مسمّى له".

وأقول هي كلمة صحيحة ودقيقة؛ فإن المسلمين في صدر الإسلام كان همّهم الأول تزكيةَ النفس الأمارة بالسوء، والسموّ بها في مدارج التربية إلى مرتبة النفس الراضية والمطمئنة دون أن يدعوا لذلك اسماً غير الاسم الذي سماه الله ﷻ به، وهو الجهاد التأسيسي الذي يبدأ بتزكية النفس وتربيتها، وهو العمود الفقري في منهاج السلوك إلى مرضاة الله.

ثم إنه خلَف بعد ذلك الرعيلِ الأول خلف، أفردوا لهذا المنهج السلوكي اسماً جديداً لا عهد لمن قبلهم به، وما لبثوا أن أَولوه أهمية بالغة من حيث إنّ هذا المنهج التربوي هو المدخل الذي لا بدّ منه لسائر أنواع الصلاح الفردي والاجتماعي.

غير أن الاهتمام بالاسم الجديد تغلب شيئاً فشيئاً على الاهتمام بالمسمى القديم، فتولد من ذلك تيار من الانجذاب إلى



كلمة التصوف. ولا ريب أن العامـــل الأول لهذا الانجذاب إنما كان اقتران الكلمة بأعمال التربية النفســية التي هي لباب السير على صراط الله ﷻ، ومن ثم فهي لباب الإســلام. ولَعلَّ رجال "الرسالة القشيرية" من أبرز من يمثلون هذا العهد.

ثم جاء على أعقابهم خلف آخر غدت كلمة التصوف عندهم أشــبه بقُبّة ليس في داخلها مزار، ولقد امتدّ عهد هذا الخلف إلى عصرنـــا الذي نحن فيه. إنك تتأمل فتجد أن التعامل اليوم إنما هو مع بريق هذه الكلمة وما يشــعّ منها -بحكم الاقتران الطويل- من مظاهر الصلاح والتقوى وأصول الإرشـــاد ومناهج التربية والســلوك إلى مرضاة الله. وعندما تبحث عما تحت هذه الكلمة من هذه المضامين لا تجد شــيئاً. وهكذا فقد غدا التصوف اليوم -كما قالوا- اسماً لا مسمى له.

النورسي الاستثناء

غير أن مـــن المعلوم أنه ما من قاعدة إلا ويعتريها شـــذوذ، وما من عموم إلا ويلحقه اســتثناء، فلا يــزال في المتصوفة من هم على ســنن الرعيل الأول. وإني لأجد أن ســيرة الأستاذ المرشد سعيد النورسي، كانت مظهراً لهذا الاستثناء. كانت مظهراً لحال الرعيل الأول من المســلمين؛ إذ كان التصوف عندهم مسمى لا اســم له. ولا ريب أن في عالمنا العربي والإسلامي من يَشرَكه في هذه الحال الاســتثنائية. ولكنهم قلّة لا يتجاوزون عدد الشذوذ من القاعدة والاستثناء من العموم.

في أكثر من موضع في (اللمعات) يصرح الأســتاذ النورسي رحمـــه الله بأنه ليس صوفياً. ولكنه في كل ما يخاطب به تلامذته من فنون النصح والتربية والإرشـــاد، لا يخرج عن ذلك اللباب الذي كان هو مســمى التصوف بل مســمى الإسلام في عصر السلف الصالح رضوان الله عليهم.

ولقد كان في مقدمة العوامل الــتي أكرمته بالصفاء الروحي وأيَّدَته بالإلهام الصائب والفتوحات الربانية تلك الساعات الطويلة التي كان يأخذ نفســه فيها بالأذكار المأثورة والأوراد التي تنسب إلى كبار الأولياء والمرشــدين، كالأوراد القدسية للشّاه نقشبند، وكالجوشن الكبير الذي كان يقرؤه ويوصي بقراءته؛ كما كان من أهم تلك العوامل خلواته الكثيرة والطويلة التي يمضيها في شواهق الجبال، وأحياناً على مقاعد في أعالي الأشجار، يحاسب فيها نفسه ويراقب فيها ربَّه، ويتأمل صفات الخالق في مرآة مخلوقاته الكونية. وهل كان ذلك كله إلا جزءٌ من المسمى الذي لم يكن له في صدر الإســلام هذا الاسم الذي شـــاع له من بعدُ "التصوف". ولكنه كان-كما قلتُ لكم- لُباب الإســلام ومكنونه، وكانت علاقته بأحكامه السلوكية الظاهرة، كعلاقة الروح بالجسد.

سنوحات ربانية

ولقد كان من نتائج هذه العوامل سنوحات ربانية عُلوية، يفيض بها قلبه، تعلو به في ســلّم المقامات، وترقــى به إلى أعلى تلك الدرجـــات. من هـــذه المقامات أن يصل الســالك من جهوده وجهاده إلى نكران الذات والفناء في المنعم ﷻ والرقي إلى أعلى درجات الإحسان، وهو عدم شعور العبد بإحسانه، وذهوله عن أحواله ومقاماته.

وإليكـــم بيانه لهذه الرتبة الــتي لا يتذوقها ولا يرقى إليها إلا من أخذت بمجامع نفســـه نشوة العبودية لله، وناله منها ما يشبه الشُّــكْر، يقول: "قال لي أحد الأتقياء في قسطموني شاكياً: لقد ترديتُ وتقهقرتُ عن حالي الســابق.. إذ فقدتُ ما كنت عليه من أحوال وأذواق وأنوار. فقلت له: بل ترقّيتَ، واستعليتَ على الأذواق والكشوف التي تلاطف النفس وتذيقها ثمراتها الأخروية في الدنيا، وتعطيها الشــعور بالأنانية والغرور.. وقد طرتَ إلى مقام أعلى وأسمى، وذلك بنُكران الذات وترك الأنانية والغرور، وبعَدم التحري عن الأذواق الفانية.. نعم إن من الإحسان الإلهي للعبد أن يُنسيَه إحسانَه بفنائه عن نفسه التي لا حول لها ولا قوة ولا وجود إلا بالمحسن الأوحد وهو الله سبحانه".[1]

أليســـت هذه السنوحات من المســميات التي لم يكن لها في صدر الإسلام اسم مختصّ به؟ لقد كان لها حضور بارز في ذلك الصدر الأول، ولكن لم يعبَّر عنها إلا بما سماها الله تعالى به، وهو تزكية النفس والصعود الدائم في درجات الإحسان.

ولقد كان من آثار هذه العوامل أيضاً تنامي مشـــاعر الخشية مـــن الله بين جوانحه، وهيمنةُ الرقابة الإلهيـــة على قلبه، وتعاظم الخوف في نفســـه مما هو مقبل عليه بعد الموت. وكلها مسمَّيات قدسية لهذا الذي يسمى اليوم تصوفاً، ولكن لم يكن لها وراء اسم العبودية الضارعة لله تعالى حينذاك أي اسم مصطنع آخر.

ولنتأمل ترجمة هذه الآثار لديه في هذا الدعاء الواجف الذي صاغه الأستاذ النورسي رحمه الله باللغة العربية، وكان يناجي به ربه ﷻ في أوقاته الخاصة. يقول رحمه الله:

"يـــا إلهي الرحيم يا إلهي الكريم! قد ضاع بســـوء اختياري عمري وشبابي، وما بقي من ثمراتهما في يدي إلا آثام مؤلمة مذلة، وآلام مضرّة مضلّة، ووساوس مزعجة معجزة... وأنا بهذا الحمل الثقيل والقلب العليل والوجه الخَجِل، أدنو إلى باب قبري.. بيت

الوحدة والانفـــراد في طريق أبد الآباد، مفارقاً هذه الدار الفانية الهالكة باليقين، والآفلة الراحلة، والغدارة المكّارة لا ســيما لمثلي ذوي النفوس الأمارة.

فيا ربي الرحيم ويا ربي الكريم! أراني عن قريب وقد لبســت أكفاني وركبت تابوتي، وودّعــت أحبابي، وتوجهت إلى باب قبري. فأنادي وأنا على باب رحمتك: الأمان الأمان، يا حنان يا منان، نجني من خجل العصيان.

آه.. كفَني على عُنقي، وأنا قائم عند رأس قبري، أرفع رأسي إلى باب رحمتــك، أنادي: الأمان الأمان، يــا رحمن يا حنان، خلّصني من ثقل حمل العصيان.

آه.. أنا ملتفٌّ بكفني وساكن في قبري، وقد تركني المشيّعون، وأنا منتظر عفوك ورحمتك مشــاهد بأن لا ملجأ ولا منجى إلا إليك، وأنــادي: الأمان الأمان من ضيق المكان ومن وحشــة العصيان، ومن قبح وجه الآثام، يا رحمن يا حنان ويا ديّان، نجني من قيود الذنوب والعصيان.

إلهي! رحمتك ملجئي ووســيلتي، وإليــك أرفع بثّي وحزني وشكايتي.

يا خالقــي الكريم، ويا ربي الرحيم، ويا ســيدي ومولاي! مخلوقك ومصنوعك وعبدك العاصي العاجز الغافل الجاهل العليل الذليل المســيء المسنّ الشقي الآبق، قد عاد بعد أربعين عاماً إلى بابك، ملتجئــاً إلى رحمتك، معترفاً بالذنوب والخطيئات، مبتلى بالأســقام والأوهام، متضرعاً إليك.. فــإن تقبل وتغفر وترحم فأنت لذلك أهل وأنت أرحــم الراحمين، وإلا فأيّ باب يُقصد غــير بابك، وأنت الرب المقصود والحق المعبود، ولا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك.

آخــر كلامي في الدنيا وأول كلامــي في الآخرة وفي القبر: أشــهد أن لا إله إلا الله وأشــهد أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم".[٢]

تأمــل في هذه المناجاة التي لا تنبثق إلا من قلب ملتاع بلوعة التعظيم والخشــية والحب، فيّاض بمشــاعر العبودية الواجفة لله ﷻ.. وتَســاءلْ معي: من أين تفجّرت في قلبه هذه الأحاسيس العلوية المنصرفة بكليتها إلى الملأ الأعلى، والمعرضة عن ملكوت الأرض وزخارف الدنيا؟

أما إن هذه الأحاســيس لا تنبثق إلا من قلب مَن أخذ نفسه بأوراد الصباح والمســاء، وغذّى فطرته الإيمانية بالكثير من ذكر الله ومراقبتــه، وألزم نفســه بمنهاج دائم مــن التنقل في مدارج السالكين. وهل كان هذا إلا دَيدن الرّعيل الأول من المسلمين، وهل كان هذا في حياتهم إلا عملاً بدون عنوان مثير، ومســمى بدون اسم مصطنع؟!

وما أظن أن الأستاذ النورسي نفى اسم التصوف عن نفسه في أكثر من مناسبة وقعتُ عليها، إلا ليجعل من نفسه أمام الله تعالى فعّــالاً بتواضع وصمت، لا قوّالاً يتحمّل أمــام الناس بالعناوين والألقاب، ولعله أراد بذلك أن يشــد نفســه إلى عهد السلف الصالح فيســير على نهجهم وينهل من وِردهم، ويحقق بذلك في نفسه الشطر الأول من مقولة: "كان التصوف في صدر الإسلام مسمى لا اسم له..".

موقف الأستاذ النورسي من البدع

في الناس من يظن أنّ مِن شــأن الذين يكثرون الاهتمام بأسباب التزكية النفســية، وأحوال القلب ومقامات القرب من الله، أن يتســاهلوا في البدع وأن يذهلوا عن خطورة الركون إليها وعن شدة تحذير رسول الله ﷺ منها.

غــير أن الواقع مخالف لهذا الظن تمامــاً؛ فما تتبعنا حال من سلكوا -بصدق- مسالك التزكية النفسية واهتمّوا بمراقبة أحوال القلب وسبل التقرب إلى الله، إلا ورأيناهم من أكثر الناس ابتعاداً عن البدع ومن أشدهم تحذيراً منها. وارجع إن شئت إلى الرسالة القشــيرية وتأمل في تراجم رجالها، تجد الجامع المشــترك بينهم تلاقيَهم على نبذ البدع ومحاربتها.

والأستاذ النورسي وإن كان متأخراً عن الرعيل الأول وسلف هذه الأمة في الوجود، إلا أنه ليس متأخراً عنهم في المكانة والرتبة فيما نحسب، ولا نتألّى على الله.

فقد أكثر الأســتاذ في رســائله، وفي لمعه وفي إشعاعاته، من التحذير من ممارســة البدع باسم الدين، ومن التنبيه إلى ضرورة التمسك بأهداب السنة النبوية وعدم الخروج عليها. وهو إذ ينبّه إلى ذلك يلفت النظر إلى أن التمســك بالســنة النبوية والحرصَ الشــديد عليها وعلى عدم الشــرود عنها، هو دأب أولياء الله تعالى وشأن المرشدين الربانيين. يقول رحمه الله في اللمعة الحادية عشرة: "إنّ مَن يجعل اتباع السنة النبوية عادته، فقد حوّل عاداته إلى عبــادات، ويمكن أن يجعل عمره كله مثمراً ومثاباً عليه". ثم يقول: "لقد قال الإمام الرباني أحمــد الفاروقي رحمه الله: بينما كنت أقطع المراتب في السير والسلوك الروحاني، رأيت أن أسطع ما في طبقات الأولياء وأرقاهم وألطفهم وآمنهم وأســلمهم، هم أولئك الذين اتخذوا اتباع السنة الشريفة أساساً للطريقة". ويعلّق الأستاذ النورســي على كلام الإمام الرباني هذا قائلاً: "نعم إن

الإمـام الرباني مجدد الألف الثاني ينطق بالحق. فالذي يتمسـك بالسنة الشريفة ويتخذها أساسـاً له، لهو أهل لمقام المحبوبية في ظل حبيب الله ﷺ".[3]

ومن هذا المنطلق ينكر الأستاذ النورسي رحمه الله على الشيخ محي الدين بن عربي فكرة وحدة الوجود، ولكنه لا يرميه بسببها بكفر أو زندقة أو فسوق، ولا يتجاهل سعة علومه وعمق أفكاره وعلوّ مقامه. يقول جواباً عن سـؤال يتعلق بابن عربي رحمه الله: "إنك يا أخي بسؤالك هذا تضطرني إلى أن أناقش -وأنا الضعيف العاجز- خارقة الحقيقة وداهية علم الأسرار محي الدين بن عربي، ولكن لما كنتُ سأخوض في البحث معتمداً على نصوص القرآن الكريم، فسـوف أسـتطيع أن أحلّق إلى أعلى من ذلك الصقر وأسمى منه، وإن كنتُ ذبابة." ثم يقول: "اعلم أن محي الدين بن عربي لا يَخْدع ولكنه ينخدع، فهو مهتد ولكنه لا يكون هادياً لغيره في كل ما كتبـه، فما رآه صِدق وصَواب ولكن ليس هو الحقيقة.."

وقد أطال الأستاذ النورسي في مناقشة أفكار ابن عربي رحمه الله، ملتزمـاً ضوابط اللياقـة والأدب دون تجريح ولا اتهام له، وأتى بكلام دقيق مقنع يضيق هذا المقام عن نقله. وبوسـعنا أن نوجز ذلك كله في قوله عنه: "ولما كان الشيخ قد انتهج مسلكاً مستقلاً، وكان صاحب مشرب مهم وله كشفيات ومشاهدات خارقة، فإنه يلجأ باضطرار إلى تأويلات ضعيفة وتكلف وتمحّل ليطبق بعض الآيات الكريمة حسب مشربه ومشهوداته، مما يخدش صراحة الآية الكريمة ويجرحها.. فالشيخ ابن عربي له مقام خاص لذاته، وهو من المقبولين، إلا أنه بكشـفياته التي لا ضوابط لها، خرق الحدود وتجاوزها وخالف جمهور المحققين العلماء في كثير من المسائل"[4]

أقول: و لم أجد في شـيء من أحاديثـه عن ابن عربي رحمه الله، ما يذكره جل المترجمين له من أن الباطنيّين دسّـوا في كتابه "الفتوحـات" كثيراً من الأفكار الباطنيـة والعقائد الكفرية التي يتبنّوها، منهم ابن العماد في كتابه "شذرات الذهب"، وابن المقري في "نفـح الطيب"، والإمام الشـعراني في "اليواقيت والجواهر"، وحاجي خليفه في "كشف الظنون". وأعتقد أن هذه حقيقة تعلو على الريب والظن. لا أدلّ على ذلك من أنك لا تجد في فتوحاته فكرة تناقض العقائد الإسـلامية إلا وتجد في مكان آخر فيه ردّاً عليهـا وتحذيراً من الأخذ بها. تأمل في هاتـين البيتين من تائيّته تجد أنهما ينطويان على نقيـض وحدة الوجود ويقرران العقيدة الإسلامية المأخوذة من كلام الله وسنة رسوله ﷺ:

وجـدتُ وجوداً لم أجـد ثانياً له
وشـاهدتُ ذاك الحق في كل صنعة
وطالـب غـير الله في الأرض كلها
كطالب ماء من سـراب بقيعـة

النورسي والتربية الروحية

وبعد، فكلنا يعلم أن الأسـتاذ النورسـي ما إن تجاوز الأربعين من عمره حتى نفض فكره ويديه من السياسـة وأحابيلها، واتجه في أنشـطته الإسـلامية إلى ميدان التربية وتزكية النفس ونقد الذات، وافتتح حياته الجديدة بقوله: "أعوذ بالله من الشـيطان والسياسة".

كانت صلته بالنـاس الذين يرشـدهم ويربيهم عن طريق رسائله التي يكتبها إليهم فتنتشر فيما بينهم، أما هو فكانت تتلقاه السجون سـجناً إثر سـجن، لا يتأتى له -إلا نادراً- الجلوسُ إليهم والتحـاور معهم. ومع ذلك فقد أثمرت جهوده هذه كما لم تثمر جهود أي جماعة إسـلامية أو حزب إسلامي؛ اتخذ من السياسـة سـلّماً للبلوغ به إلى عقول الناس وأسماعهم. ها أنتم ترون اليوم ثمار تربيته الروحية والسـلوكية، يانعة متجددة على عَرض هذا المجتمع وطُوله، يبدد ضياءه السـاطع ما تراكم من ظلمات الجهالة والفسـوق والإلحاد. وكأنه ضياء أشرق للتوّ أو لكأنها تربية تلقتها الآذان والألباب بالأمس القريب.

فما السـرّ الكامن وراء هذه الظاهرة الغريبة التي تتبدى في سطور ورسائل وكلمات مضى على توجيهها إلى الناس ما يناهز القرن من الزمن؟ السـر يكمن في هذه الإشـراقة الروحية التي كانت تتوهج بها حياة الأستاذ النورسي. لقد كان هذا الوهج هو الروح السارية في رسائله وكلماته، وكان مَعينه متمثلاً في ذلك الجهاد الخفي الذي كان يأخذ به نفسه، مراقبةً لله، وذكراً دائماً له، والتجاءً إليه بالأسـحار، وملازمة للأوراد التي تصفّي القلب في البكور والآصال. وإنه للجهاد القدسـي الذي كان في صدر الإسلام مسمى لا اسم له، ثم غدا اليوم اسماً لا مسمى له. ■

(*) كلية الشريعة، جامعة دمشق / سوريا.

الهوامش

(1) الشعاعات لبديع الزمان سـعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ص ٣٧٤.

(2) اللمعات ص ١٩٧-١٩٨ ؛ المثنوي العربي النوري ص ٢٨١-٢٨٢

(3) اللمعات ص ٨١.

(4) اللمعات ص ٥٢ و٥٣.



أنفاس ظمئنا إليها...

إطلالة على الداعية المرتقب

نوزاد صواش*

الدعوة إلى الله ليست مسألة مزاجية يزاولها الداعي قبل أن يعبأ لها فكريا ونفسيا وروحيا. ومن دون ذلك يمكن أن يؤدي عمله العشوائي والمزاجي إلى العكس من المرجو من هذه المهمة النبيلة. فالدعوة "علم وفن".[1]

الدعوة علم وفن

فما لم يكن الداعية على علم معمق بالذي يريد قوله، وما لم يكن على دراية بأقصر الطرق الموصلة إلى روح الإنسان فإن الإخفاق سيكون من نصيبه. وإن آمادا بعيدة ما زالت تفصل بين الدعاة وجوهر الإنسان، وإلى هذا يعزى فشل الداعية في كسب المخاطب إلى صف دعوته. فما لم يكن بوسع الدعاة الوصول إلى هذا الجوهر الذي يقوم عليه كيان الإنسان، ثم إزالة ما تراكم عليه من صدأ كي يتألق من جديد ويتبين معدنه النقي النفيس فإن الإخفاقات ستتوالى بدون انقطاع.

نعم، "إذا كان الإنسان جزء مهما من هذا الكون فينبغي ألا نسمح له بتدمير نفسه وسحق روحه، لأن دمار هذا الجزء المهم من الكون قد يسبب دمارا للكون كله. فنحن مسؤولون كونيا وأخلاقيا عن هذا الجزء وصيانته من الانهيار، ولن نسمح له بأن يخرج على التوافق الكوني المدين بدين الله".[2] فقضية الإيمان قضية تتعلق بالكون كتعلقها بالإنسان، وإن صلاح الكون بصلاح الإنسان، وفساده بفساد الإنسان.

ومن ثم على الدعاة أن يعوا هذه القضية كل الوعي بأبعادها الكونية والإنسانية، وأن يرتفعوا إلى مستوى المسؤولية. وذلك بإخصاب أرواحهم وإذكاء أفئدتهم وشحن أذهانهم وموازنة حياتهم وتعميق رؤاهم الإيمانية. وأن يدوروا مع الزمن حيثما دار، ويجروا مع الحياة حيثما جرت، ويركضوا وراء الإنسان حيثما مضى، وإلى أي عالم كان انتماؤه، وأي ثقافة كانت ثقافته ولغته.

في عصر العولمة هذا، أصبح للعقل الجمعي قوة تأثيرية أوسع وأسرع مما تستطيعه العقول بجهدها الفردي. فقيادة العالم وإحداث التغيير فيه نحو الأسوأ أو الأفضل، يمكن أن يكون أكثر فاعلية إذا مارست العقول نشاطاتها الذهنية والمعرفية من خلال المؤسسات، سواء كانت هذه المؤسسات علمية أو اجتماعية أو اقتصادية أو ثقافية أو أخرى.

السكونية والحركية

ليس هناك شيء أكثر خطورة على المسلمين من السكون والاسترخاء والاستسلام للنوم والأحلام. "فالسكونية عفونة روحية تقتل المواهب وتحطم الإبداع وتخنق البطولة وتكتم أنفاس العبقرية. ومنذ مات النازع الحركي في المسلمين، وتوقفوا عن الهجرة والانسياح في أرجاء الأرض حاملين دعوتهم إلى العالم... منذ ذلك الوقت توقفت إبداعاتهم وغاب فهمهم ونجمت في أوساطهم إشكالات فكرية موهومة وخصومات مذهبية جدلية، وانشغل بعضهم ببعض، وربما قاتل بعضهم بعضا، متناسين مهمتهم الدعوية الأساس التي ندبهم الله تعالى إليها. إن دعاة الإيمان إذا ما ساحوا وهاجروا إلى أي مكان في العالم وضربوا جذورهم فيه، فإن الشجرة لا بد أن تنبت عن قريب، وأن تورق وتثمر، وإن تاريخا جديدا للإسلام سيبدأ يتشكل في المكان الذي زرعوا أنفسهم فيه."(٣)

وهذه طبيعة الإسلام، فالإسلام يأبى السكونية والهمودية ويأبى المحدودية، وقد هاجر المسلمون الأوائل وهم يجرون في العالم حيث يجري بهم الإسلام. وإذا كان العالم قد استنـــزفته اليوم قوى الغرب وقيمه وسلوكياته النفعية، وأفرغته من كثير من قيم الإيمان، فإن هذا يحتم على المسلم أن يبادر بنفسه لكي يعيد لإنسان اليوم عمق الهدفية الإلهية في نفسه.

ومن المنطلق حث فضيلة الأستاذ فتح الله كولن رجال التربية والاقتصاد والثقافة وأهل الحمية من الشعوب مرات عديدة وبمناسبات شتى على إنشاء مدارس وجامعات في تركيا وفي مختلف أرجاء المعمورة، وجعلها مراكز للتربية والتعليم، تدعو إلى الحب والسلام، والحوار والتسامح، ومزج العلم بحقائق الإيمان، ومواكبة العصر من حيث التطورات العلمية والتكنولوجية، مع أخلاق سامية يشار إليها بالبنان. وربما يكون هذا أسلوبا جديدا غير مسبوق في تعريف الشعوب برسالة الإسلام السمحة. وقد أثبت نجاحَه حيث استطاع أن يوصل صوت الإيمان إلى أصقاع قصية لم تكن قد سمعت بالإسلام وسماحته في شرق العالم وغربه وشَماله وجنوبه وكافة قاراته.

الانفتاح على معطيات العصر

إن الدعوة إلى الله منفتحة على معطيات العصر في العلوم والفنون والأفكار المتنوعة والثقافات المختلفة. وذلك لإكسابها مزيدا من الاحترام في أوساط واسعة من المثقفين والمفكرين في شتى أنحاء العالم. ينبغي على المسلم أن يكون هو الأرقى والأفضل بين العقول، وأن يحتل كرسي الأستاذية التي يرجع إليها في أمور الثقافة والحياة والإيمان، وألا يكون منكفئا ومنغلقا وبعيدا عن الواقع.

أجل لا شك أن العقلية الحضرية رافد من روافد تشكيل العقل الدعوي، إلا أنها يجب ألا تستعبد الداعية يوما، ولا يكون هو سجين نظريات وآراء، بل حرا يقبل منها ما له ملمح إيماني، ويترك ما ليس له مثل هذا الملمح، وهو لا يعرف هذا الصراع المؤلم بين ما يقرؤه فكرا ويحياه عملا. الفكر عنده هو الحياة، والحياة عنده هو الفكر.

والداعية كتاب مفتوح، كل صفحاته وسطوره مقروءة ومكشوفة، ليس فيه صفحات مطوية عن العيون أو صفحات مكتوبة بالحبر السري. وكما كان رسولنا الحبيب صلى الله عليه وسلم سفرا مفتوحا يقرؤه من يريد، من تاريخ ميلاده إلى انتقاله إلى الرفيق الأعلى، هكذا تكون حياة أصحاب الدعوات وأفكارهم. حياة كلها نهار لا ليل فيها، وضحى واضح لا لبس فيه، وظاهر لا باطن له.

إنقاذ الإيمان

الداعية إلى الله لا يزاحم أهل الدنيا على دنياهم ولن يزاحمهم. إن الدنيا نفسها لو جاءته تسعى لعزف عنها وأدار إليها ظهره. إنه مشغول بدعوته، بإنقاذ إيمان الناس. إن إنقاذ إنسان واحد من وهدة الضلال هو خير له من الدنيا وما فيها. وإعادة إيمان غائب إلى قلب إنسان هو أعظم ما يطمح إليه، وإيصال صوت الإيمان إلى أسماع من لم يسمع به هو غاية الغايات عنده. هذه هي دعوته يعلنها على رؤوس الأشهاد لا يكتم منها شيئا ولا يخفي منها شيئا.

التركيز على جوهر الإنسان

إن معالجة الجفاف الروحي والجدب الفكري لدى المسلمين هو من أبرز مهماتنا. وجهلنا بالإنسان يجعلنا نقف حائرين تجاهه، ومن ثم علينا أن نهتم بالدراسات التي تعمل على كشف أسرار الإنسان ظاهرا وباطنا، ونشجع الدعاة على التخصص بها لكي تتوفر للدعوة معلومات عن كينونة الإنسان وكيفية التعامل دعويا معها، والتعمق في حقيقتها. لأن الفوضوية الروحية تجتاح العالم اليوم وتستدر العطف والإشفاق من أصحاب الغيرة على الإنسان.

إن سر قوة الدعوة هو في تطابقها مع قوانين النفس البشرية. والذين سئموا من التحليق حول جيف الدنيا سيجدون في أجوائها ما يتوقون إليه من الطهر والنقاء، وأصحاب الذهنيات المعذّبة والنفوس المحترقة سيرون واحتهم البرود في إقليمها. أما اولئك الذين يتهيبون الإسلام ويخافون منه فسيلمسون ألا شيء أكثر أمنا وأمانا وسلاما من الالتجاء إلى حماه، وأن المعرفة كل المعرفة فيه، وأن من لا يعرفه فإنه لا يعرف في الحقيقة شيئا. وسكارى الأحزان ومسحوقو الأوجاع سيجدون في صيدلية هذه الدعوة البلسم والشفاء.

إن الدعوة كلها دعاء، وليست شيئا آخر غير الدعاء. دعاء بلسان الحال أو بلسان المقال. وبين الحال والمقال ترتفع الليالي مثقلة بالتهجدات، موقورة السمع بالتضرعات، نضاحة بدمع القلوب، صراخة بوجد الأرواح. وركب الدعوة يمضي في طريقه مشرقا أو مغربا يقوده صواب المنطق، وتحدوه فطنة الحكمة، ويأتيه المدد الإلهي من كل جانب، وتواكبه العناية الربانية حيثما مضى وأنى ألقى عصا ترحاله.

فالداعية يحذر من الهلاك الروحي المخيف، والسقوط في هاوية الانحلال النفساني الداخلي. إنه لا ينفك يدعو اولئك الذين يريدون الخروج من مستنقع الوحل ولكنهم لا يعرفون السبيل إلى ذلك، إنه يدعوهم إليه لينخرطوا في صفوف الإيمان.

الحوار مع الآخر

إن سر الدعوة يكمن في علانيتها ووضوحها وعموميتها، وفي المرونة التي تؤهلها لمحاورة الآراء والأديان والثقافات المختلفة، لتكشف لهم عن حقيقة رسالتها، وتزيل التساؤلات التي تثار حولها، وتعبر عن ذاتيتها بنفسها، ولا تدع لأحد مجالا لتشويه صورتها.

إن الدعوة كائن روحي في إهاب بشري، شخص معنوي ذو ذاتية مستقلة، لكنها منفتحة على جميع الذوات، وذو إدراك عال، غير أنه ملزم بمخاطبة جميع الإدراكات. "وإذا كانت دعوة الإسلام قد غيرت وجه العالم القديم، ورسمت خارطة جديدة لفكره الديني، فهي اليوم مرشحة كذلك للقيام بالدور نفسه إذا ما وجدت ممثليها الحقيقيين."[4]

الداعية المرتقب

الداعية المرتقب كيان إنساني مشع لا يتوقف عن بث شعاعه. فكما أن بعضا من عناصر الطبيعة المشعة لا تستطيع أن تكف نفسها عن الإشعاع، وكما أن الشمس لا تستطيع التوقف عن إرسال ضوئها إلى الأرض، والقمر لا يقدر أن يحرم الليل من نوره، هكذا الإنسان الداعية لا يمكنه أن يحبس نوره عن الآخرين أو يستر ضياءه عنهم، لأن الدعوة لهب يشعل ذرات دمه، وضياؤه يموج في حنايا ضلوعه. فهو يضيء في أي مكان يحل فيه أو يرتحل عنه.

فلو انهار الكون فجأة، وتناثرت كواكبه، واصطدمت أجرامه، وسقطت السماء على الأرض، وكادت القيامة تقوم وفي يد الداعية فسيلة نور، فإنه يبحث عن قلب يزرع فيه فسيلته قبل أن يغدو العالم رمادا تذروه رياح العدم. ولأن العطاء عنده صار طبيعة وسجية فهو لا يستطيع أن يتوقف عن العطاء، كما لا يرجو سوى مرضاة الله تعالى أجرا. لذا فإن دائرة مستمعيه في اتساع، وصوت دعوته في ارتفاع.

دعاة الإسلام الحق إخوة البشر وأشقاء الإنسان، لأنهم يمتون بنسب إلى كل قلب، يرثون للأرواح السليبة من النور، وللقلوب المجدبة من فجر اليقين. إنهم أطباء القلوب، وكما تنبجس الحياة من الموت، هكذا وبلمسة منهم تنفجر الحياة في موتى القلوب. لذلك صاروا مثابة يؤمهم الجم الغفير من أخيار الناس طلبا للنجاة والشفاء. هؤلاء هم الدعاة العالمون العاملون، أما اولئك الذين يعلمون ولا يعملون فإنهم كالثقوب السوداء لا تعكس نورا إلى شيء.

إن الداعية المثالي بطل ثابت الجأش متماسك النفس قوي الإرادة، صاحب رصانة علوية، نبيل الفكر والروح دائم التوثب، لا يخفت حماسه، ولا ينطفئ وجده، لا يعيا ولا يكل، في روحه تسكن أمجاد أمة وتاريخ إيمان وفجر الأبد ويقين الخلود. إنه عالَم متين من القوة التي لا تعرف الضعف والانهزام، يجيش قلبه بالرأفة على اولئك التائهين الضالين من بني الإنسان. وعلى وفرة رجولته ورجاحة فضله

جم التواضع، صوام اللسان إلا عند الضرورة، لا يثير ضجيجا، ولا يقيم مناحة، لا يتفجع ولا يتشكى. إنه يدور مع القدر حيث دار، ومع القدرة يستمد منها القوة، ويطلب منها المدد.

يقول صاحب كتاب طرق الإرشاد في الفكر والحياة: "اعلموا أن الغرب لن يستجيب لدعوتكم إلا إذا وجد أمامه أناسا تنفطر قلوبهم حزنا من أجل خلاص الإنسانية، وإشفاقا عليها... أناسا يقضون لياليهم بالتهجد والقيام لله، وألسنتهم رطبة بذكر الله، لا يهدرون الوقت عبثا، بل يقضونه بما يفيد البشرية وينفعها. أجل، الغرب لن يسلّم روحه إلا أناسا مشحونين بمثل هذه الطاقة. فإذا أصبح ممثلو الإسلام على هذه الشاكلة، فسيهرع الغربيون إلى الإسلام ويدخلون في دين الله أفواجا. ولكن، والحالة معكوسة، فقد تجلت النتيجة معكوسة أيضا".[٥]

إن عظماء الدعاة مشغولون دائما بأقدس الأفكار وأطهرها. "فهم يعلمون جيدا أن المسلم عنصر أساس في نظام العالم، فكما لا يمكن الحديث عن النظام في عالم خال من المسلمين، كذلك لا مجال للإرهاب والفوضى في أماكن يوجد فيها المسلمون. وهذا منوط بأداء المسلم وظيفة التبليغ والتمثيل حق الأداء."[٦]

فهم يراقبون أنفسهم ويسارعون في ترميم ما ينهار من عزائمهم وما ينصدع من إراداتهم باللجوء إلى كتاب الله والاستمداد من نور رسول الله صلى الله عليه وسلم. واغترابهم الروحي ميزة عالية ينجذب إليها من يرى فيها استعلاء على تفاهات البشر. وعلاقاتهم الحميمة مع "جنس الإنسان" تفتح لهم منافذ الاتصال بالعالم. وما يلاقونه في سبيل الدعوة من عقبات صغيرةً كان أو كبيرةً لا تثبط هممهم ولا تقتل رجاءهم.

إنهم أذكياء اللب شهماء الأفئدة، على قلوبهم مدونات نورانية من عالم الغيب. فقلوبهم في جيشان دائم لا يتوقف، وصدورهم تنطوي على رغبة في اعتناق كل البشر. إنهم بشريون حقا ولكنهم في قلوب ملائكية، وآدميون ترابيون، إلا أن أرواحهم تسبح في الملأ الأعلى. ■

شجرة الإخلاص

لا تتكلَّمْ قبل أن تَغْمس لسانَ قلبكَ برحيقِ رُوحك لتتهافَتَ عليك الضمائر تَهافت الفَراش على رحيق الزَّهر، وكم من القلوب ستغتسل بأضواء قلبك عندما تورقُ شجرة إخلاصك...

(*) كاتب وباحث / تركيا

الهوامش

(١) طرق الإرشاد في الفكر والحياة، تأليف: م. فتح الله كولن. ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، ص ١٠٣ وما بعدها.

(٢) المصدر السابق.

(٣) نحو الفردوس المفقود، فتح الله كولن، كتاب لم يترجم بعد، ص ٦-٧

(٤) انظر طرق الإرشاد في الفكر والحياة، ص ١٨٥-٢٠٨

(٥) المصدر السابق، ص، ١١١.

(٦) المصدر السابق، ص، ١١١.

الضاربون في الأرض

أديب إبراهيم الدباغ*

شباب أطهار، ذوو قلوب فتية نابضة بالإيمان، وإرادات شمّاء، وعزائم لا تعرف المستحيل، يقود خطاهم إلى فجاج الأرض شوق مُبَرِّح، ويلهّب حماسهم فكر دعويّ إبداعي، ورؤية فيّاضة بالوضوح، وحدّة في البصر والبصيرة... أخذوا كتاب الله بقوة، وضَمّوه إلى صدورهم وكأنه عليهم يتنـــزّل، وإياهم يخاطب، يحرصون عليه حرصهم على ماء عيونهم، ويرومون إيصال رسالته إلى أيّ إنسان في أيّ مكان من العالم، حتّى لو خاضوا إليه أشدّ البحار نأياً واستيحاشاً، أو جابوا إليه قرارة الكون، أو غاصوا إليه طبقات الأرض، أو اعتلوا إليه أطباق السماء... معهم مدرسة ينشئونها، وكتاب يدرسونه ويدرّسونه، وقلَم يُعَلّمون به ويتعلمون منه. إذا ما رأيتهم في حومة الفكر أو العمل، وهم يشفون عن روح مشرق، وقلب وَضّاء، وفكر خصب.. لك أنْ تتساءل: أهم أَنْداء سماوية منهلّة على عطش الأرض، وجَدب الحياة؛ أم هم جنس إنساني جديد غير هذا الجنس، انشقت عنهم أرض غير هذه الأرض؛ أم قذفتْ بهم أمواج الغيب على ضفاف الدنيا لكي يشاركوا في إصلاحها قبل أن تطيش وينقلب عاليها سافلها.

أما البؤساء المثقلون بالآلام والدموع والدماء فهم يرقبونهم من بعيد، رافعين نحوهم أذرُع الضراعة، ومعبرين عن شوقهم للقياهم ومنتظرين يدهم الآسية، وروحهم المواسية، وقلبهم المعَزّي، ونداهم الهابط على القلب القاحل، والنفس اليابسة، والذهن الناشف. إنهم طاقة إيمانية كبرى أحسبها لو سلطت على جبل لجعلَتْه دكًا وخرّ صَعِقاً.

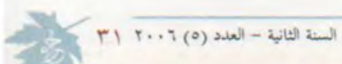
إنهم إبداعيون ابتكاريون، غير تقليديين، قادرون على تجديد فكرهم الدعويّ بين يوم وآخر، وفي ذهنهم دائماً السؤال الملحّ: هل من المحتمل أنه على الرغم من كل التجارب الدعوية التي عرفناها وعرفها الدعاة منذ قرنَين من الزمن فإننا ما نزال نعاني من السطحية والضبابية في الفهم والعمل؟! وهل من المحتمل أننا قد أخطأنا فهم تاريخ العمل الدعوي وقصرناه على أنماط تقليدية واحدة و لم نحاول التجديد فيها، وهذا هو الذي يسبب لنا اليوم الكثير من الإحباط؟! أجل إنَّ ذلك قد يكون محتملاً.

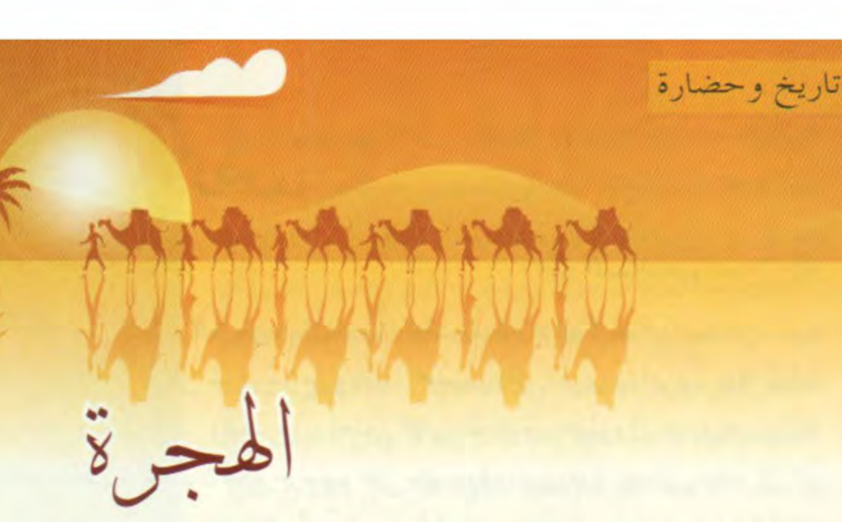
وكما يضرب هؤلاء الفتية في الأرض -كُلّ الأرض- لا يَصُدُّهم شيءٌ، ولا يحول بينهم وبين مبتغاهم حائل، فإنهم يضربون كذلك في "النفس البشرية" وينطلقون وراء أشدّ تخوم النفس ظلمةً، وأكثرها رعباً واستعصاءً، حيث تتصارع في الأعماق مئات من الـ "أنا" ليصالحوا بينها، وينشروا الأمن والسلام في أرجائها، ويسلكوا بها نحو "المعرفة القرآنية" التي تسوّي جميع صراعات الإنسان مع نفسه ومع الكون ومع الله تعالى.

إنّه الإصلاح العقلي والروحي الذي ينشده هؤلاء الفتية لأنفسهم وللآخرين، وهم في الوقت نفسه يبشرون بطريقة جديدة للحياة يتعاون فيها "العقل القرآني" -إذا صَحَّ التعبير- مع جِدَّة التجربة، وشدّة المعاناة التي تنجي الإنسان من السطحية والتفاهة، وتشعره بقدسية الحياة من حيث كونها مرآة واسعة تعكس المفهوم القرآني في إعجازيتها وكونها آية من آيات الخلق والإيجاد.

والداعية من هؤلاء الفتية سهل هيّن ليّن، لا يبني حول نفسه جداراً عقلياً أو نفسياً، ولا يحيط نفسه بهالة فخمة لا يستطيع الآخرون أن ينفذوا منها إليه، بل هو على استعداد دائم لقبول الآخرين والاستماع لآرائهم والإفادة من تجاربهم بكل صدق وحميمية، وهذا هو الجانب الأخلاقي المطلوب من كل داعية يتصدى للدعوة إلى الله. ■

(*) كاتب وأديب / العراق





الهجرة
مشروع لبناء حضارة إيمانية جديدة

أ.د. عبد الحليم عويس*

عندما هاجر الرسول ﷺ من مكة لم يهجر قلبه تراب مكة ولا الكعبة الرابضة في قلب مكة، ولقد أعلن ﷺ ذلك بعبارة صحيحة عندما التفت إلى مكة وهو يودعها قائلاً: "ما أطيبك من بلد وأحبك إليّ! ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك." (رواه الترمذي)

وعندما هاجر الرسول ﷺ من مكة لم يهجر قريشاً ولا بني هاشم، فلقد كان يحب الجميع ويتمنى لهم الهداية والخير، كما أنه -وهو الوفي- لم ينس لبني هاشم -مُسلمهم وكافرهم- مواقفهم معه عندما قادَهم عصبية الرحم فحموه من كل القبائل، ودخلوا معه شعب أبي طالب يقاسون معه ومع المسلمين الجوع والفاقة، ولا يَمنّون عليه بذلك، مع أنهم على غير دينه، لكنه الولاء للأرحام.

هاجر عليه السلام ولكنه لم يهجر

فالرسول المهاجر ﷺ لم يهجر كل ذلك بل حمله معه في قلبه، يحنّ إلى ذلك اليوم الذي يعود فيه إلى مراتع الصبا، وإلى الرحم الذي وقف معه حتىّ قال قائلهم وسيدهم أبو طالب: "اذهب يا ابن أخي! فقل ما شئت فوالله لن أسلمك أبداً"، مع أنه لم يكن على دينه.

وإنما كانت هجرة الرسول ﷺ من مكة هجراً للوثنية المسيطرة التي لا يريد أصحابها أن يتعاملوا بمنطق الدين أو منطق العقل أو منطق الأخلاق. فهذه وثنية يجب أن تهجر وأن يهاجر من مناطق نفوذها وإشعاعاتها.

وإنما هاجر الرسول، وهجر -إلى جانب الوثنية المسيطرة- تلك العصبية المستعلية التي تعرف منطق القوة، ولا تعرف منطق الحق، وليس في وعيها ولا في قاموسها أن تهادن الإيمان، وأن تترك مساحة للتفاهم والحوار، وبالتالي تصبح الحياة معها -بعقيدة إيمانية بعيدة عن إشعاعاتها- أمراً مستحيلاً.

إننا نريد أن يفهم مضمون الهجرة الإسلامية كما ينبغي أن يفهم، وأن تكون هجرة الرسول هي المرجعية لهذا الفهم. فقد بُعث محمد ﷺ "رحمة للعالمين"، فكيف تكون إذن رحمته بالقوم الذين انتسب إليهم، أو بالقوم الذين عاش معهم، أو بالأرض الطاهرة التي نشأ فيها، وتربّى في بطاحها وتنسم عبيرها، وشاهد جموع الزاحفين إلى أرضها الطاهرة من كل فج عميق؟!

إن رحمته -بالضرورة هنا- لا بد أن تكون أكبر من أي رحمة أخرى... ولهذا نراه ﷺ يرفض دائماً أن يدعو على أهل مكة، وحتى وهو في هذه اللحظة البالغة الصعوبة، عندما وقع في حفرة حفروها له في موقعة أحد، وتناوشته سهامهم من كل مكان، وسالت دماؤه الطاهرة على جبل أحد الذي كان يتبادل الرسول ﷺ الحب معه، لأن بعض قطرات دمائه الزكية قد اختلطت بتراب أحد الطاهر، فأصبحا حبيبين... حتى في هذه اللحظة البالغة الصعوبة لم يستطع لسانه الزكي، ولا قلبه التقيّ أن يدعو عليهم، ولا أن يشكوهم إلى الله، وإنما كان يردد على مسمع من الناس جميعاً: "اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون"(متفق عليه). وعندما كان يرى تمادي قريش في الحرب كان يتأسف عليهم ويقول: "يا وَيحَ قريش لقد أكلَتهم الحربُ، ماذا عليهم لو خلّوا بيني وبين سائر الناس" (رواه الإمام أحمد في مسنده).

وكم راودته الجبال الشم -بأمر من الله- أن تطبق عليهم فكان يرفض ويقول: "أَرْجُو أَن يُخرج اللهُ مِن أَصلابهم مَن يَعبد الله وحده لا يُشرك به شيئا"(متفق عليه). وعندما جاءته فرصة السلام معهم أصرّ عليها، مع تعنّتهم في الشروط تعنّتاً أغضب أصحابه، لكنه كان يريد لهم الحياة، وألا تستمر الحرب في أكلهم، وألا يبقوا -وهم قومه وشركاؤه في الوطن- مستمرين في تأليب القبائل عليه لدرجة أنهم أصبحوا العقبة الكأداء في طريق الإسلام؛ مما يفرض عليه بأمر الله الجهاد لإزالة هذه العقبة، ونجح الرسول في إزالة عقبتهم بقبول شروطهم المجحفة، حبّاً لهم، وحفاظاً على بقائهم، وأيضاً لإفساح الطريق أمام دين الله.

أما حين دخل مكة ﷺ فاتحا فقد حافظ بكل قوة على كرامتهم ودمائهم، ولم يقبل مجرد كلمة خرجت من فم سعد بن عبادة ﷺ -أحد الصحابة والقادة الأجلاء- وذلك عندما قال: "اليوم يوم الملحمة" فنـــزع الراية منه، وأعطاها لابنه قيس وقال "لا، بل اليوم يوم المرحمة، اليوم يعزّ الله قريشاً".[1]

وعندما استسلمت مكة كلها تماماً، وقف أهل مكة ينتظرون حكمه فيهم مستحضرين تاريخهم الظالم معه، لكنهم سرعان ما تذكروا أنه الرؤوف الرحيم الطاهر البريء من رغبات الانتقام أو المعاملة بالمثل. فلما سألهم: "ماتظنون أني فاعل بكم"، قالوا: "أخ كريم وابن أخ كريم"، فرد عليهم قائلاً: ﴿لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ (يوسف: ٩٢)، وهي كلمة نبي الله يوسف عليه السلام التي قالها لإخوته، ومنها ندرك أنه اعتبرهم جميعاً إخوته، كأنهم إخوة يوسف عليه السلام، ثم أعلن العفو العام بتلك الجملة الخالدة: "اذهبوا فأنتم الطلقاء لوجه الله تعالى"[2]. فكأنه أنقذهم من الموت الزؤام عليه الصلاة والسلام.

دعوة لمهاجري العصر الحاضر

ونقول للمهاجرين من أبناء عصرنا لظروف مختلفة إلى أي بلد من بلدان العالم: هذه هي هجرة رسول الله ﷺ بين أيديكم، وهي كتاب مفتوح، فأمعنوا القراءة فيه لتدركوا منه أن هجرتكم من بلادكم -لأي سبب من الأسباب- لا تعني القطيعة مع أرض الوطن، ولا مع الأهل والعشيرة، ولا مع المسلمين في أي مكان، مهما تكن الخلافات الظرفية الطارئه معهم؛ بل يجب أن تبقى الصلة قائمة بينكم وبين الأهل والقوم، تمدونهم بأسباب الحفاظ على الدين من مواقعكم، لكي يثبتوا ويمتدوا بإشعاعات الإيمان إلى أكبر مدى ممكن، لاسيما ووسائل التواصل الآن في أقوى مستوى عرفته البشرية، وبالتالي تكونون قد وصلتم الرحم، وجمعتم بين الثلاثية المتكاملة التي تمثل بأركانها الثلاثة وحدة لا تنفصم، وإلا فقدت الأمة "مكانة الخيرية" التي رفعها الله إليها عندما قال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ (آل عمران: ١١٠) إنها ثلاثية الإيمان والهجرة والجهاد.

أجل! في عصرنا هذا يجب أن يعود معنى الهجرة إلى منبعه النبوي، فليست الهجرة هجراً للوطن، وقطيعة تاريخية أو معرفية معه، بل هي هجرة موصولة بالماضي، تعمل على تعميق الإيمان فيه، وتبني قلاعاً للإيمان في المهجر الجديد، وتصل بين الماضي والحاضر والمستقبل انطلاقاً من درس الهجرة النبوية.

التواصل مع ماضي المهاجر مطلوب

إن الحرية التي تريد أن تتمتع بها في مهجرك، والثروة التي تريد أن تكوّنها، وحتى الدعوة التي تريد أن تبلّغها -إن كنت ممن اصطفاهم الله للدعوة والبلاغ-... كل هذه تدفعك إلى التواصل مع الماضي من جانب؛ وتدفعك إلى بناء حدائق للإيمان يفوح عطرها في وضعك الجديد، وبلدك الجديد، من جانب آخر.

ليكن معنى الهجرة واضحاً في وَعيك، فهي ليست هجرة من أرض ولا أهل إلى أرض وأهل آخرين، بل هي هجرة من قيم ضيّقة ضاغطة تكبل حركة الإيمان، وتفتعل الصدام المستمر، وترفض الحوار بين الأفكار والعقائد، إلى قيم أخرى تسمح لأشجار الإيمان أن تنمو، وتسمح بالتفاعل والتحاور، ومواجهة الرأي بالرأي، والحجة بالحجة، وتكون مؤهلة لأن تسمح لأهل



الإيمان والحق أن يعيشوا كما يريدون، وأن يبنوا قلاع الإيمان في النفوس عن طريق الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن.

إن الهجرة النبوية الإسلامية هجرة يقصد بها كسر القيود التي تفرض على الإيمان، وفتح نوافذ أخرى في أرض جديدة. وليست الهجرة الإسلامية أبداً من تلك الهجرات التي تعني زحفاً على البلاد على حساب أهلها، أو لتحقيق الثروة ثم الخروج بها، أو للاعتماد عليها لقهر أصحاب البلاد الأصليين، وجعلهم مجرد منفذين وأدوات لمشروعاتٍ وطموحاتِ المهاجرين إليهم.

فالهجرة الإسلامية اليوم -إلى أيِّ بلد في العالم- يجب أن تكون هجرة تسعى إلى التواصل والتعارف والتحاور والحب؛ بحيث يشعر كل الناس أنّ الأفراد المسلمين أو المجموعات الإسلامية التي تعيش بينهم إنما تمثل روحاً جديدة، تبني ولا تهدم، وتزرع الخير، و تقاوم الشر، ولا تعرف التفرقة في ذلك بين المسلم وغير المسلم، والوطني، والوافد، والأبيض والأسود.

وكل ذلك لن يتحقق إلا إذا رأى الناس في المسلم المهاجر إليهم -من خلال أقواله وأفعاله، وإسهاماته الخدميّة، وآفاقه المعرفية، وعبوديته لله- شخصية متميزة جادة تفعل ما تقول، وتعيش معهم حياتهم اليومية، وآمالهم، وآلامهم، يفيض منه الخير والنور، تلقائياً وعفوياً، كأنه بعض ذاته، وكأنه مرآة قيمه، وصدى أخلاقه، وأثر منهجه في الحياة.

وهنا يتساءل الناس من غير المسلمين: من أين لهذا المهاجر كل هذا الخير والنور؟ من أين له هذه الإنسانية المتدفقة؟ ومن أين له هذه الرحمة التي تعم الإنسان كل إنسان، بل والحيوان والنبات أيضاً... فسيصلون حتماً إلى الإجابة الصحيحة، وهي أن هذا الإنسان يرتشف من نبع الأنبياء، ويستمد وعيه الحضاري ومشروعه الإنساني الرحيم من نبيّه وإمامه، وإمام المسلمين الأعظم، بل وإمام الإنسانية محمد ﷺ.

فقد كانت هجرته المباركه روحاً جديدة، عبّر عنها أحد الصحابه الكرام (أنس بن مالك ﷺ) في قولته المعروفة التي ذكر فيها أنه عندما دخل الرسول ﷺ المدينة بعد نجاح هجرته: "أضاء منها كل شيء، وعندما مات ﷺ أظلم فيها كل شيء". وهذا على العكس من مكة التي تسلل منها المسلمون هاربين بدينهم، فأظلم فيها كل شيء، ولم يبق فيها إلا الطغيان، والنـــزوع إلى الحرب. فلما فتَحها الرسول ﷺ انبعث فيها النور، وأضاءت الكعبة، وجاء الحق وزهق الباطل، وأصبحت مكة قلعة الإسلام الأولى.

إن هذا المعنى للهجرة يجب أن يبقى فوق كل العصور؛ لأنه اتصل بنبيّ الرحمة في كل العصور وكل الأمكنة، وأصبح -بالتالي- صالحاً لكل زمان ومكان، صلاحية كل حقائق الإسلام الثابتة.

ولئن كنا نؤمن بأنه "لاَ هجرةَ بعد الفَتح"(متفق عليه) كما قال الرسول ﷺ، فإننا يجب أن نؤمن في الوقت نفسه ببقية الحديث، وهو قول الرسول: "ولكن جهاد ونية"، وهذا يعني أن الهجرة بعد مرحلة الهجرة الأولى قد أخذت بُعداً اصطلاحياً جديداً. ففي البُعد الأول كانت الهجرة مرتبطة بمكان هو المدينة، ولكنها بعد ذلك أصبحت مطلقة من المكان، فهي إلى أي مكان شريطة أن يكون "الجهاد والنية" هما الهدفين المغروسين في النفس. فهما -أي الجهاد والنية- قد انفصلا عن قيد وحدة المهجر (المدينة) الذي كان في صدر الدعوة، وأصبحا صالحين في كل العالم يمشيان مع رجال الدعوة والبلاغ، ويضمنان سلامة الأعمال وارتفاعها على المنافع الاقتصادية أو الظروف السياسية.

الهجرة والتكافل الإيماني

وعندما يستقّر هذا المعنى في النفس نستطيع أن نطمئن إلى أن أبطال الدعوة والبلاغ سينشئون في كل مكان يحلّون فيه حديقة جديدة للإيمان، وتاريخاً جديداً يبدأ كأشعّة الشمس في الصباح، ثم ينساب عبر كل زمان منطلقا إلى مساحة جديدة في الأرض.

وعلى المسلمين إذن -عندما يكونون في أرض المهجر- أن يسارعوا إلى الالتحام ببعضهم، وتكوين مجتمع إيماني يقوم على

"المؤاخاة" التي ترتفع فوق الأخوّة، وهي مستوى خاص فوق أخوّة الإيمان التي هي مستوى عام، وأن يتكافلوا مع بعضهم تكافلاً مادياً ومعنوياً، تحقيقاً لقوله تعالى ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾(المائدة: ٢) وقوله أيضاً ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾(العصر: ٣).

والتكافل "المادي" يعني التعاون على ضمان الحد الأدنى المطلوب للحياة لكل أخ مسلم، طعاماً أو شراباً أو علاجاً أو تعليماً أو كساءً. والتكافل "المعنوي" هو التعاون على ضمان التزام "الأخوة" في الإسلام بأداء "الفرائض" والبعد عن "المآثم"، وتفعيل وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في إطار البيئة التي يعيشون فيها وبالأساليب المناسبة لها. وعليهم أيضاً أن يبنوا "مسجداً" يضم الرجال والنساء والأطفال، مهما يكن مستواه متواضعاً. فقد حذّرنا الرسول من وجود عدد -مهما يكن قليلاً- من المسلمين لا تقام الجماعة فيهم، كما أن "المسجد" سيكون محور لقاءاتهم وتعارفهم وتكافلهم المادي والمعنوي. ومن المسجد ينطلقون إلى صور من التكامل فيما بينهم تأخذ طابعاً علمياً ومؤسساتياً يجعل لهم قيمة وتأثيرا وإشعاعاً في مهجرهم الجديد.

لقد أخبرنا الرسول ﷺ أن مما فضل به على بقية الأنبياء أن الأرض جعلت له مسجداً. وقد حقق المسلمون السابقون العظماء "مسجدية الأرض" في كل الأرض التي هاجروا إليها، فهل يمكننا أن نستأنف المسيرة ونحذوا حذوهم.

فلعل الأرض تتخلص من الغيوم السوداء المتلبّدة وتعود مسجدًا طهورًا. ولعل الله يجري على أيدينا وأيدي المستخلفين من بعدنا نهراً جديداً للإيمان، وتاريخاً جديداً تتعانق فيه راية الوحي مع العلم، والحق مع القوة، ويسود العدل الشامل والرحمة المحمدية العالمية كل الكون... وما ذلك على الله بعزيز! ■

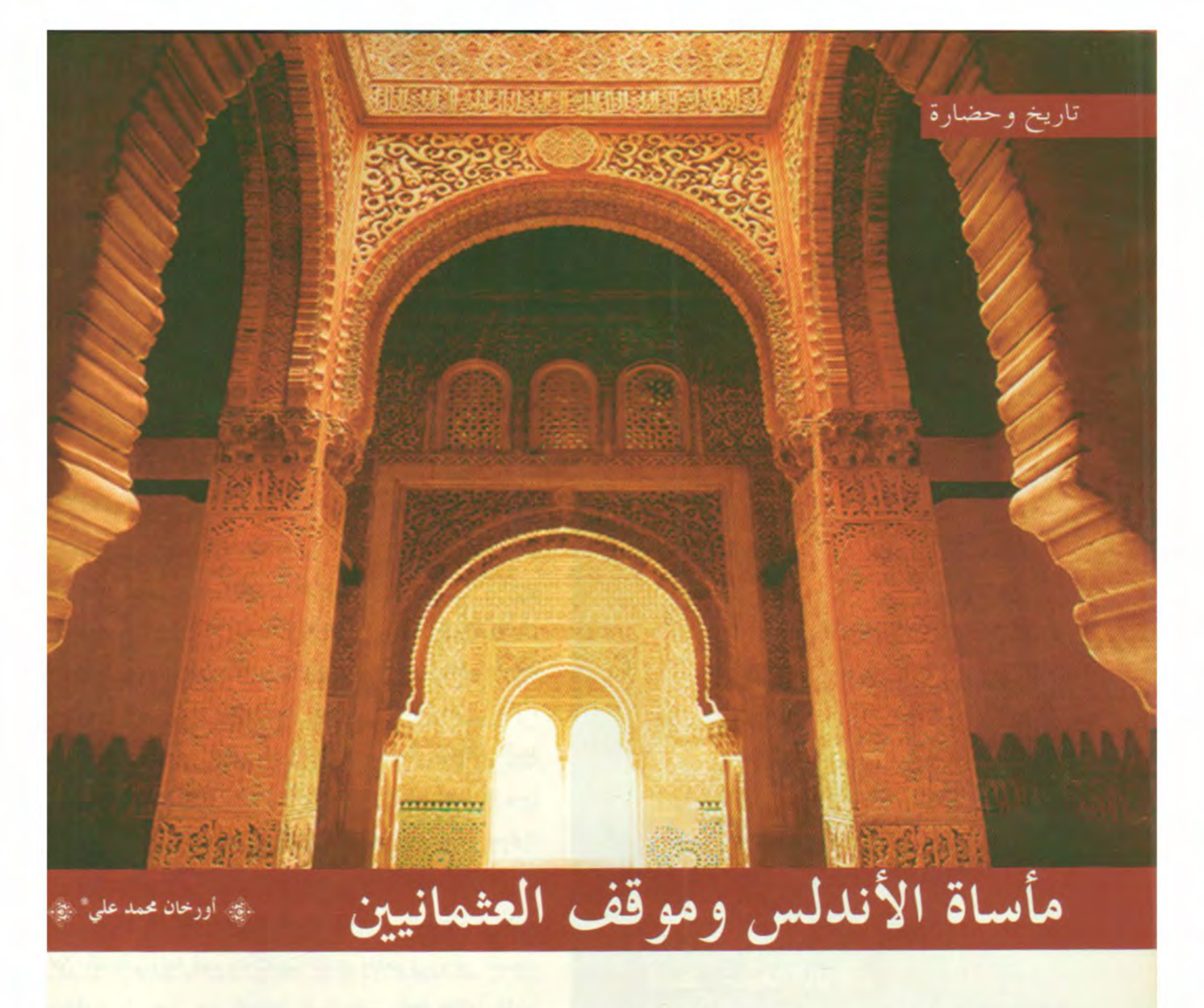
(*) أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية / مصر.

الهوامش

(١) الاستيعاب لابن عبد البر، ٥٩٧/٢.

(٢) سنن البيهقي الكبرى، ١١٨/٩.





مأساة الأندلس وموقف العثمانيين

أورخان محمد علي*

هناك أسئلة حائرة تجول في أذهان العديد من المثقفين في العالم العربي حول التاريخ العثماني ومن أهمها سؤال: "لماذا لم تقم الدولة العثمانية بمساعدة مسلمي الأندلس عندما داهمهم الخطر الإسباني الماحق؟ ألم يكن في وسع الدولة العثمانية -وهي في أوج قوتها- الحيلولة دون وقوع تلك المأساة المروعة لمسلمي الأندلس. لنتناول هذا الموضوع بإيجاز.

من المعلوم لدى الجميع أن تفرق المسلمين في الأندلس إلى دول طوائف أضعفهم، وأن العديد من حكام هذه الدول الصغيرة بدؤوا يستعينون بالإسبان ضد الحكام الآخرين من المسلمين، وهكذا بدأت القصة الأليمة لأفول شمس الإسلام من سماء الأندلس. وبينما كان المسلمون غارقين في خضم الفرقة والشتات، خطا الإسبان خطوة مهمة في مضمار الوحدة عندما تزوّج "فرديناند" ملك أراغون من "إيزابيلا" ملكة قشتالة، وأصبح الهم الوحيد للأسبان القضاء على آخر دولة إسلامية في الأندلس وهي دولة بني الأحمر في غرناطة والتي كان يحكمها آنذاك أبو عبد الله محمد وامتدت مدة حكمه عشر سنوات (١٤٨٢ – ١٤٩٢م).

العثمانيون والانتصار للأندلس

والحقيقة أنه كان من المتوقع انتهاء حكم مسلمي الأندلس قبل هذا التاريخ بمئات الأعوام لولا المساعدات الخارجية التي كانت تأتيهم من الدول الإسلامية في شمالي أفريقيا. فقد قامت دولة "المرابطين" بنجدتهم ضد "ألفونصو" السادس ملك قشتالة، ثم جاءت مساعدات دولة "الموحدين" بعد ذلك وبقيت أسرة الموحدين في الأندلس حتى انتصار ألفونصو الثامن عليها في معركة "نافاس دي طولوسا".

ولكن الوضع تغير في أواخر عمر دولة بني الأحمر في غرناطة، فلم تكن هناك دول إسلامية قوية في شمالي أفريقيا، بل دول ضعيفة، وفي أحيان كثيرة دول متعاونة مع الإسبان والفرنسيين

مثل دولة بني حفص في تونس والمرينيّين في المغرب. كما قام الأسبان بسد مضيق جبل طارق ليمنعوا وصول أي نجدة من مسلمي شمالي أفريقيا إلى الأندلس. فلم يبق أمام مسلمي الأندلس سوى الاستنجاد بأقوى دولتين إسلاميتين آنذاك وهما الدولة العثمانية في آسيا الصغرى، ودولة المماليك في مصر، فأرسلوا وفدا لكل منهما طلبا لنجدتهم.

الوفد الأندلسي في إسطنبول

وصل الوفد الأندلسي إلى "إسطنبول" عاصمة الدولة العثمانية التي كان على رأسها السلطان بايزيد الثاني ابن السلطان محمد الفاتح، وقام رئيس الوفد بتسليم رسالة استغاثة مؤثرة حفظها التاريخ من مسلمي الأندلس إلى السلطان، نُورِد هنا مقدّمتها:

"الحضرة العلية وصل الله سعادتها، وأعلى كلمتها، ومهّد أقطارها، وأعزّ أنصارها، وأذلّ عُداتها. حضرة مولانا وعمدة ديننا ودنيانا، السلطان الملك الناصر، ناصر الدنيا والدين، وسلطان الإسلام والمسلمين، قامع أعداء الله الكافرين، كهف الإسلام، وناصر دين نبينا محمد عليه السلام، مُحيي العدل، ومنصف المظلوم ممن ظلم، ملك العرب والعجم، والترك والديلم، ظل الله في أرضه، القائم بسنته وفرضه، ملك البرّين، وسلطان البحرين، حامي الذّمار، وقامع الكفار، مولانا وعمدتنا، وكَهفنا وغيثنا، لا زال ملكه موفور الأنصار، مقرونا بالانتصار، مخلّد المآثر والآثار، مشهور المعالي والفخار، مستأثّرا من الحسنات بما يضاعف الأجر الجزيل، في الدار الآخرة والثناء الجميل، والنصر في هذه الدار، ولا برحت عزماته العليّة مختصة بفضائل الجهاد، ومجردة على أعداء الدين من بأسها، ما يروي صدور السفح والصفاح، وألسنة السلاح بَاذلة نفائس الذخائر في المواطن التي تألف فيها الأخيار مفارقة الأرواح للأجساد، سالكة سبيل الفائزين برضا الله وطاعته يوم يقوم الأشهاد".

وكان هناك مع هذه الرسالة أبيات طويلة من شعر مؤثر للشاعر أبي البقاء صالح بن شريف يصف مأساة المسلمين في الأندلس وغدر الأعداء بهم:

سلام عليكم من عبيد تخلّفوا
بأندلس بالغرب في أرض غربة
أحاط بهم بحرٌ من الردم زاخر
وبحر عميق ذو ظلام ولجة
سلام عليكم من عبيد أصابهم
مصاب عظيم يا لها من مصيبة
سلام عليكم من شيوخ تمزّقت
شيوخهمُ بالنتف من بعد عزة
سلام عليكم من وجوه تكشفت
على جملة الأعلاج من بعد سُترة
سلام عليكم من بنات عواتق
يسوقهم اللبّاط قَهرا لخلوة
سلام عليكم من عجائز أُكرهت
على أكل خنزير ولحم جيفة

وبعد هذه المقدمة المؤثرة تشرح القصيدة غدر الأعداء الإسبان وكيف يقومون بتنصير المسلمين قهرا وجبرا وكيف أن المسلمين جاهدوا ولكنهم قلة أمام جموع الأعداء:

غُدرنا ونُصّرنا وبُدّل ديننا
ظُلمنا وعوملنا بكل قبيحة
وكنا على دين النبي محمد
نقاتل عمال الصليب بنية
ونلقى أمورًا في الجهاد عظيمة
بقتل وأسر ثم جوع وقلة
فجاءت علينا الروم من كل جانب
بجد وعزم من خيول وعدة
فكنا بطول الدهر نلقى جموعهم
فنقتل فيها فرقة بعد فرقة
وفرسانها تزداد في كل ساعة
وفرسانُنا في حال نقص وقلة
فلما ضعفنا خيموا في بلادنا
ومالوا علينا بلدة بعد بلدة
وجاءوا بأنفاظ عظام كثيرة
تهدم أسوار البلاد المنيعة
وشدوا عليها الحصار بقوة
شهورا وأياما بجد وعزمة
فلما تفانت خيلنا ورجالنا
ولم نر من إخوننا من إغاثة
وقلت لنا الأقوات واشتد حالنا
أحطناهمُ بالكره خوف الفضيحة
وخوفا على أبنائنا وبناتنا
من ان يؤسروا أو يقتلوا شر قتلة
على أن نكون مثل من كان قبلنا
من الدجن من أهل البلاد القديمة

ثم يقول الشاعر بأنهم أصبحوا ضحية الغدر وعدم الوفاء بالوعود والبنود التي بلغت خمسة وخمسين بندا في عقود الصلح، من أنهم سيستمرون في إقامة شعائرهم الإسلامية بكل حرية، ولكنهم عندما دخلوا تحت حكمهم نسوا تلك الوعود والعهود وتركوا المسلمين أمام خيارين لا ثالث لهما فإما التنصر أو القتل.

ثم يستغيث الشاعر بسلطان الدولة العثمانية، ويعقد آماله عليه:

فها نحن يا مولاي نشكو إليكم
فهذا الذي نلناه من شر فرقة
عسى ديننا يبقى لنا وصلاتنا
كما عاهدونا قبل نقض العزيمة
وإلا فيجلونا جميعًا عن أرضهم
بأموالنا للغرب دار الأحبة
فأنتم بحمد الله خير ملوكنا
وعزتكم تعلو على كل عزة
وثم سلام الله قلت ورحمة
عليكم مدى الأيام في كل ساعة

دعا السلطان بايزيد الثاني الصدر الأعظم والوزراء والقواد إلى مجلس اجتماع طارئ لبحث الموقف وما الذي تستطيع الدولة العثمانية تقديمه في تلك الظروف.

بحث المشاركون في المجلس الظروف التي تمر بها الدولة العثمانية آنذاك، ونوع ومدى المساعدة التي تستطيع الدولة تقديمها لمسلمي الأندلس. ولسوء حظ مسلمي الأندلس فقد كانت الدولة العثمانية تمر بظروف قاسية جدًّا، كما كان بعد المسافة، وعدم وجود طريق برّي مباشر إليها يزيد من حدة المشكلة ويعقدها.

الظروف الصعبة للدولة العثمانية

نستعرض هنا باختصار شديد الظروف الصعبة التي كانت تعيشها الدولة العثمانية آنذاك:

العثمانيون والمماليك

كانت الدولة العثمانية آنذاك في حرب مع دولة المماليك في مصر، بسبب نزاعات بدأت من عهد السلطان محمد الفاتح (والد السلطان بايزيد الثاني). فقد عرض السلطان محمد الفاتح على أشرف سيف الدين حاكم دولة المماليك في مصر (الذي كانت مملكة الحجاز ونَجد تحت سيطرته) قيام الدولة العثمانية بتعمير وإصلاح قنوات الماء في الحجاز دون مقابل تيسيرا للحجاج، فقوبل برفض فظ من قبله. ومما زاد من التوتر بين الدولتين قيام المماليك بفرض ضريبة على الحجاج العثمانيين. وفي عهد السلطان بايزيد الثاني أبدى المماليك رغبتهم في ضم منطقة "جُوقُورْ أُوَه" العثمانية إلى الأراضي السورية التي كانت تحت حكمهم. كما حدثت مشاكل أخرى بين الدولتين لا نتطرق إليها هنا. والخلاصة أن الوفد عندما جاء إلى السلطان كانت الجيوش العثمانية في حرب مع جيوش المماليك التي تقدمت فعلا إلى منطقة "جوقور أوه".

مشكلة الأمير "جَمْ"

كانت الدولة العثمانية تعيش مشكلة الأمير "جَمْ" (الأخ الأصغر للسلطان بايزيد) الذي شق عصا الطاعة على أخيه السلطان مطالبا بالعرش لنفسه. وحدثت معارك بين الأخوين انتهت بانتصار السلطان بايزيد وهرب الأمير جَمْ إلى مصر حيث استقبل من قبل حاكم مصر بحفاوة، وكان هذا عاملا مضافا لزيادة التوتر بين البلدين مما أدّى إلى إشعال فتيل الحرب بينهما. ولم تقف مشكلة الأمير جَمْ بإحداث التوتر بين هاتين الدولتين بل إن الأمير جم عندما أسر من قبل القراصنة وهو على ظهر سفينة وتمّ بيعه إلى البابا، أصبح ورقة تهديد في يد الدول الأوروبية والبابا ضد الدولة العثمانية، وأدى إلى توتر العلاقات بين الدول الأوروبية وبين الدولة العثمانية، وإلى تحالف صليبي جديد من البابا "جويلس الثاني" وفرنسا والمجر وجمهورية البندقية ضد الدولة العثمانية مما حدا بالدولة العثمانية إلى تركيز اهتمامها على الخطر القادم إليها من أوروبا.

خطورة الدولة الصفوية

كانت الدولة الصفوية تحاول نشر المذهب الشيعي في الأناضول وترسل المئات والآلاف من شباب التركمان الشيعة -بعد تدريبهم- إلى الأناضول لهذا الغرض. وكانت نتيجة هذه الجهود حدوث حركات عصيان مسلّحة قادها الشيخ جُنَيد أولا ومن بعده ابنه حيدر، أي كانت هناك قلاقل كبيرة في الأناضول، ولم تتخلص الدولة العثمانية من هذه القلاقل ومن خطر الدولة الصفوية إلا في عهد السلطان سليم (ابن السلطان بايزيد الثاني).

إذن فالدولة العثمانية كانت في ضائقة شديدة وكانت في حرب فعلية مع المماليك من جهة، وفي مشاكل كبيرة مع الدول الأوروبية حيث نرى أنه بعد سنوات قليلة اضطرت الدولة العثمانية لإعلان الحرب على المجر وعلى بولندة. كما اتفقت بولندة والمجر وليتوانيا ضد الدولة العثمانية وأعلنت عليها الحرب، كما كانت تعاني من وجود قلاقل وحركات تمرد وعصيان في الداخل. لا نريد الخروج عن الموضوع وإيراد تفاصيل جانبية، ولكن كان من الضروري إلقاء نظرة على وضع الدولة العثمانية آنذاك.

"بايزيد" يفعل ما يستطيع

بعد دراسة لكافة الظروف الداخلية والخارجية قرر السلطان بايزيد إرسال قوة بحرية تحت قيادة "كمال رَئيس" على وجه السرعة. كان ذلك في عام ٨٩٢هـ/ ١٤٨٧م. أي قبل سقوط غرناطة بخمس سنوات. وكانت الدولة العثمانية بعملها هذا تعلن الحرب على عدة دول مسيحية في أوروبا؛ كانت تعلن الحرب على قسطاليا وعلى آراغون وعلى نابولي وعلى صقلية وعلى البندقية؛ أي أن الدولة العثمانية على الرغم من مشاكلها الكثيرة -التي ذكرنا أهمها- كانت الدولة الإسلامية الوحيدة التي مدت يد العون لمسلمي الأندلس على قدر طاقتها، ودخلت من أجلهم في حالة حرب مع دول عدة؛ بينما توقّفت عن ذلك الدول الإسلامية الموجودة في شمالي أفريقيا والتي كان بإمكانها من الناحية الجغرافية مسلمي الأندلس كالدولة الحفصية في تونس والدولة الوطاسية في المغرب.

قام "كمال رَئيس" بضرب سواحل جزر جاربا ومالطا وصقلية وساردونيا وكورسيكا، ثم ضرب سواحل إيطاليا ثم سواحل إسبانيا، وهدم العديد من القلاع والحصون المشرفة على البحر في هذه السواحل. وقام أحيانا بإنزال جنوده في بعض السواحل لهدم تلك القلاع. ولكنه لم يكن يستطيع البقاء طويلا، لأن الحرب البحرية لا تكفي للاستيلاء على المدن ولاسيما المدن الداخلية البعيدة عن البحر، فلا بد من مشاركة القوات البرية التي تستطيع التوغل في الداخل وتثبيت وإدامة السيطرة على المدن المفتوحة. ولم يكن هذا ممكنا آنذاك، لبُعد الشقة بين الأندلس وبين الدولة العثمانية وكذلك بين مصر والأندلس. ولو صرفت الدولة العثمانية كل طاقتها وحاولت الوصول بَرّا إلى الأندلس (وهذا ما لا يتوقعه عاقل) لكان عليها محاربة العديد من الدول الأوروبية لعشرات الأعوام. هذا علما بأن الدول الأوروبية كانت قد قطعت كل صلة لمسلمي الأندلس مع البحر الأبيض المتوسط، كما سدّوا مضيق جبل طارق ليمنعوا وصول أي نجدة إليهم من الدول الإسلامية. وقام "كمال رئيس" بقصف بعض سواحل تونس بسبب كون الدولة الحفصية الحاكمة في تونس في حلف مع الأسبان ومع فرنسا ضد إخوانهم من مسلمي الأندلس.

وكم كان من المؤسف أن هذه القوة البحرية العثمانية اضطرت أخيرًا إلى مواجهة الدولة الحفصية في تونس لكونها تقوم بمساعدة الفرنسيين. ولكون الدولة العثمانية في حرب مع المماليك فقد وقعت هذه القوة البحرية بين نارين، لذا لم تؤد هجمات هذه القوة البحرية إلى نتائج ملموسة. وفي عام ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م استسلمت مدينة غرناطة وانتهى حكم المسلمين في الأندلس. ولكن هذه القوة البحرية قامت بنقل ما يقارب من ٣٠٠ ألف من المسلمين التاركين بيوتهم والهائمين على وجوههم من الأندلس، إلى المغرب وإلى الجزائر.

أما الوفد الأندلسي الثاني المرسل إلى دولة المماليك في مصر فلم يحصل على أي نتيجة أيضا حيث إن مصر بعيدة عن الأندلس، ويحتاج إنقاذ هؤلاء المسلمين إلى قوة برية. كما كانت في حرب مع الدولة العثمانية كما ذكرنا.

كان الأشرف سيف الدين قايتباي (١٤٦٨- ١٤٩٦م) هو الذي يحكم دولة المماليك آنذاك، فلم يجد وسيلة لنصرة مسلمي الأندلس سوى إرسال وفود إلى البابا وإلى الأسبان ليقول لهم أن هناك العديد من المسيحيين يعيشون في مصر وفي سورية وأنهم يتمتعون بكامل حرياتهم الدينية ولا يتعرض لهم أحد، وليحذرهم بأنه سيقوم بقتل جميع المسيحيين وإجبارهم على اعتناق الإسلام إن قام الأسبان بقتل المسلمين أو إجبارهم على التنصر. ولم يهتم الأسبان ولا البابا بهذا التحذير الذي عدوه مجرد تخويف لأنهم يعلمون أن الدين الإسلامي يمنع إكراه أحد على ترك دينه. وقد ادعى الأسبان لوفد مصر أن المسلمين تنصروا بملء إرادتهم ولم يجبرهم أحد على هذا. وجاءوا بشهود زور تم تهديدهم وتخويفهم فشهدوا بذلك.

وقد سجل أبو البقاء في شعره هذه الحادثة وذكر أسماء المدن التي عذب أو أحرق أهلها أو ذبحوا بالسيف قائلاً:

فســـل وحرا عن أهلها كيف أصبحوا
أســـارى وقتلـــى تحـــت ذل ومهنة
وســـل بلفيقـــا عـــن قضيـــة أمرها
لقد مُزقوا بالســـيف من بعد حســـرة
وضيافـــة بالســـيف مـــزق أهلهـــا
كـــذا فعلـــوا أيضـــا بأهل البشـــرة
وأنـــدرش بالنـــار أحـــرق أهلهـــا
بجامعهـــم صـــاروا جميعـــا كفحمة

وهكذا بقي مسلمو الأندلس وحدهم في الميدان وتجرعوا الآلام وبادت دولتهم الزاهرة جراء تفرقهم إلى طوائف عديدة. فجرّوا على أهاليهم وبلدهم تلك النهاية المروعة التي ستبقى من أكثر المآسي المروعة في التاريخ الإنساني. ■

(*) كاتب وباحث تركي

كالشمعة...

عليك أن تشتعل وتذوب لتنير الدروب للآخرين...

* * *

العقيدة الإسلامية بين جمال القرآن وتقسيمات علم الكلام


أ.د.فريد الأنصاري*

كلمة البدء في الإسلام هي "لا إله إلا الله"، وهي كلمةُ سِرٍّ، سر في غاية اللطافة والبهاء. نعم، كل المسلمين يقولونها، ولكن القليل منهم هم الذين يتذوقونها حقا؛ ذلك أن انصرافهم إلى التصورات الكلامية في مجال العقيدة قد صرفهم عن فضاءاتها الجميلة ومواجيدها الجليلة.

الإسلام عقيدة تربوية في الأساس

إن عقيدة الإسلام لم تكن في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية إلا لمسة تربوية ذات أثر روحي عميق على الوجدان والسلوك. وقد كان المسلمون عندما يتلقونها بعباراتها القرآنية الجليلة، يتفاعلون معها تفاعلا عجيبا؛ إذ يتحولون بسرعة وبعمق كبير من بشر عاديين، مرتبطين بعلائق التراب، إلى خلائق سماوية تنافس الملائكة في السماء، وما هم إلا بشر يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق. ولذلك حقق الله بهم المعجزات في الحضارة والتاريخ. إن الكيمياء الوحيدة التي كانوا يتفاعلون بها هي "لا إله إلا الله"، لكن ليس كما صورها علم الكلام بشتى مدارسه ومذاهبه، وإنما كما عرضها القرآن آيات بينات ومحكمات.

إن التقسيمات الكلامية للعقيدة الإسلامية التي أملتها ضرورة حجاجية حينا، وضرورة تعليمية حينا آخر، ليست ذات جدوى في عالم التربية الإيمانية؛ لخلوها من روحها الرباني وسرها التعبدي، الذي لا تجده إلا في كلمات القرآن وأحرفه: "من قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها. لا أقول "الم" حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف"(رواه الترمذي). ثم إن التعبير عن حقيقة الذات الإلهية لا يكون على كمال صدقه، جلالا وجمالا، إلا إذا كان بما عبر الله به عن ذاته سبحانه وصفاته. وما كان للنسبي المحدود أن يحيط وصفا وعلما بالمطلق غير المحدود. ومن هنا كان التوقيف في مجال التعبير العقدي في الإسلام.

تفعيل العقيدة

كثير من الناس يتكلم في العقيدة اليوم ولكن قليلا منهم يتفاعل معها؛ لأن العلم الجدلي ما كان له أن يؤتي ثمارا قلبية، وهو قد أنتج أساسا لإشباع رغبات العقل المماري، لا لإشباع حاجات القلب الساري. وقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يخاطب بالعقيدة الإيمانية العقول، خطابا ينفذ من خلالها إلى القلوب، حيث تستقر بذرة، تنبت جنات وأشجارا.

إن السر الذي تتضمنه عقيدة "لا إله إلا الله" والذي به غيرت مجرى التاريخ مرات ومرات والذي به صنعت الشخصيات التاريخية العظيمة في الإسلام، إنما يكمن في "جمالها". الجمال، ذلك الشيء الذي لا يدرك إلا بحاسة القلب. إنه إحساسٌ: "كم هو جميل أن يكون المرء مسلما!". ودون هذا الإدراك اللطيف للدين، إدراكات أخرى من أشكال التدين، لا تغني من الحق شيئا. لقد ضاع صفاء الدين وجماله السماوي في غبار التأويلات ورسوم التقسيمات. وقد ذم قوم "الكلامَ"، لكنهم لم يدركوا أنهم في خضم الصراع المذهبي ردوا وقسموا "فتكلموا"، وسقط عنهم بذلك بهاء الدين وجماله وهم لا يشعرون. أو -على الأقل- لم يترك ذلك في الأتباع لمسات الجمال، وأذواق الصفاء في السلوك الذي يصنفون به على أنهم "مسلمون". فكانت التصورات في واد، والتصرفات في واد آخر. وذلك لعمري هو الخسران المبين.

إن القرآن الكريم والسنة النبوية يقولان لنا حقيقة جليلة عظيمة، لم يستطع أن يوصلها إلينا علم الكلام: هي أن عقيدتنا جميلة.

عقيدة جمالية

ولكم هو مؤسف حقا أن يضيع هذا المعنى من تدين كثير من المسلمين اليوم، فلا يرون في الدين إلا خشونة وحزونة. هذا التخشب في الأقوال والفعال، الذي سيطر على تدين كثير من الناس اليوم؛ إنما كان لأسباب سياسية واجتماعية مختلفة، ليس هذا مجال بيانها. ولا يجوز أبدا أن تكون مسوغا للانحراف عن بهاء الدين وجماله. وإنما أنزله الله ليكون جميلا، تتذوقه القلوب، وتتعلق به الأنفس؛ فلا تستطيع منه فكاكا، فتُسْلِمُ -بجذبه الخفي وإغرائه البهي- لله رب العالمين.

"لا إله إلا الله" -إذ يقولها العبد مستشعرا دلالتها اللطيفة- كلمة "قلبية" مدارها على وصف حال، والاعتراف بذوق صفات الكمال والجلال. إنها تعبير عن الخضوع الوجداني التام لله. نعم، قلت "الوجداني" لأنها -ببساطة- كذلك وردت في سياقها القرآني الأصيل.

ولو تأملت هذه العبارة العظيمة في اللغة، لوجدتها تقوم على لفظتين أساسيتين، هما مدار الإسلام كله: "الله" و "الإله".

فأما كلمة: "الله" فهو لفظ الجلال، الاسم العَلَم على الذات الإلهية، الاسم الجامع لكل الأسماء الحسنى والصفات الإلهية العُلَى. ولفظ "الله" فرد في اللغة، فلا يجمع ولا يتعدد.

وأما كلمة "الإله" فهو لفظُ وصفٍ، يدل على معنى شعوري قلبي؛ ولذلك فهو يتعدد، إذ يجمعُ على "آلهة". وأما باقي العبارات في "لا إله إلا الله" فهي "لا" النافية، و"إلا" الحاصرة، تقومان بدور البناء والتركيب اللغوي؛ للنفي والإثبات، الذي يربط نوع العلاقة في قلب المؤمن بين الوصف "إله" والاسم "الله". وحقيقة تلك العلاقة هي ما يهمنا في هذا البحث. إنها علاقة تملأ الوجدان بما يفيض به قلب العبد المعبّر بها حقا وصدقا من الاعتقاد والشعور تجاه مولاه جلّ علاه.

ذلك أن كلمة "إله" في أصل الاستعمال اللغوي كلمة قلبية وجدانية، كما ذكرنا. أعني أنها لفظ من الألفاظ الدالة على أحوال القلب كالحب والبغض والفرح والحزن والأسى والشوق والرغبة والرهبة... إلخ. أصلها قول العرب: "أَلِهَ الفَصيلُ – يَأْلَهُ – أَلَهاً" إذا ناح شوقا إلى أمه. والفصيل ابن الناقة إذا فطم، وفصل عن الرضاع، يحبس في الخيمة وتترك أمه في المرعى، حتى إذا طال به الحال ذكر أمه وأخذه الشوق والحنين إليها -وهو آنئذ حديث عهد بالفطام- فناح وأرغى رغاء أشبه ما يكون بالبكاء، فيقولون: "أَلِهَ الفصيلُ" فأمه إذن ههنا هي "إلهه" بالمعنى اللغوي، أي ما يَشُوقُه. ومنه قول الشاعر: "أَلِهْتُ إليها والرَّكائِبُ وُقَّفٌ"

جاء في اللسان: اسم "اللّه": تفرد سبحانه بهذا الاسم، لا يشركه فيه غيره، فإذا قيل: "الإله" انطلق على الله سبحانه وعلى

ما يعبد من الأصنام. وإذا قلت "الله" لم ينطلق إلا عليه سبحانه وتعالى. وقيل في اسم الباري سبحانه: إنه مأخوذ من أَلِهَ - يَأْلَهُ: إذا تحيَّرَ، لأن العقول تَأْلَهُ في عظمته. وأَلِهَ يَأْلَهُ أَلَهاً: أي تحيَّرَ، وأصله وَلِهَ يَوْله وَلَهاً. وقد أَلِهْتُ على فلان: أي اشتد جزعي عليه مثل وَلِهْتُ. وقيل: هو مأخوذ من أَلِهَ يَأْلَهُ إلى كذا، أي: لجأ إليه؛ لأنه سبحانه الْمَفْزَعُ الذي يُلْجَأُ إليه في كل أمر"(١). إذ "الإله" في هذا السياق اللغوي هو: ما يَشُوقُ القلب، ويأخذ بمجامع الوجدان، إلى درجة الانقياد له والخضوع. قال عز وجل: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾(الجاثية:٢٢).

والراجح فعلا أن "أَلِهَ" هو من "وَلِه" ومنه اشتق الاسم العلم "الله"؛ لأن مدار كلا المادتين على معاني القلب، فأبدلت من الواو همزة. قال الراغب الأصفهاني: "أَلَـه فلانٌ - يأله: عَبَدَ. وقيل: أصلـه وِلاه، فأبدل من الواو همزة، وتسميته بذلك لكون كل مخلوق والِهاً نحوه، إما بالتسخير فقط كالجمادات والحيوانات، وإما بالتسخير والإرادة كبعض الناس، ومن هذا الوجه قال بعض الحكماء: الله محبوب الأشياء كلها"(٢).

و"الوَلَهُ": هو الجنون الحاصل بسبب الحب الشديد، أو الحزن الشديد، يقال: امرأة وَلُوهٌ: إذا أحبت حتى جنت، أو إذا ثكلت؛ فحزنت حتى جنت. قال ابن منظور: "الْوَلَهُ: الحزن. وقيل هو ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد، أو الحزن أو الخوف. والوله: ذهاب العقل لفقدان الحبيب وناقة ميلاهٌ: هي التي فقدت ولدها فهي تَلِهُ إليه. يقال: وَلَهَتْ إليه تَلِهُ أي تحنّ إليه وناقة وَالِهٌ: إذا اشتد وجدها على ولدها"(٣).

عقيدة حب ووجدان

وهكذا فأنت ترى أن مدار المادتين "أله" و"وله" هو على معان قلبية، ترجع في مجملها إلى التعلق الوجداني والامتلاء بالحب، فيكون قول المؤمن "لا إله إلا الله" تعبيرا عما يجده في قلبه من تعلق بربه تعالى، أي لا محبوب إلا الله، ولا مرهوب إلا الله، ولا يملأ عليه عمارة قلبه إلا قصد الله. إنه أشبه ما يكون بذلك الفصيل الصغير الذي ناح شوقا إلى أمه، إذْ أحس بألم الفراق ووحشة البعد. إن المسلم إذ "يشهد" ألا إله إلا الله، يقر شاهدا على قلبه أنه لا يتعلق إلا بالله رغبةً ورهبةً وشوقاً ومحبةً. وتلك لعمري "شهادة" عظيمة وخطيرة، لأنها إقرار واعتراف بشعور، لا يدري أحد مصداق ما فيه من الصدق إلا الله، ثم الشاهد نفسه، ومعاني القلب لا تحد بعبارات ولا تحصرها إشارات. ومن هنا كانت شهادة "ألا إله إلا الله" من اللطافة بمكان، بحيث لا تدرك على تمام حقيقتها إلا ذوقا.

قال ابن القيم رحمه الله: "إن محبة العبد لربه فوق كل محبة تقدر، ولا نسبة لسائر المحابّ إليها، وهي حقيقة لا إله إلا الله!"(٤) إلى أن يقول في نص نفيس تشد إليه الرحال: "فلو بطلت مسألة المحبة لبطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان، ولتعطلت منازل السير إلى الله. فإنها روح كل مقام ومنزلة وعمل. فإذا خلا منها فهو ميت لا روح فيه. ونسبتها إلى الأعمال كنسبة الإخلاص إليها، بل هي حقيقة الإخلاص، بل هي نفس الإسلام. فإنه الاستسلام بالذل والحب والطاعة لله. فمن لا محبة له لا إسلام له البتة، بل هي حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله. فإن "الإله" هو الذي يألهه العباد حبا وذلا، وخوفا ورجاء، وتعظيما وطاعة لـه، بمعنى "مألوه": وهو الذي تألهه القلوب. أي تحبه وتذل له فالمحبة حقيقة العبودية"(٥).

معنى الإسلام

ذلك أن معنى "الإسلام" هو الخضوع لله رب العالمين، والاستسلام لأمره تعالى. إنه الاعتراف الوجداني، أي التعبير العملي عن الشعور الحقيقي الذي يلامس القلب، عندما يدرك العبد و"يجد" أنه "عبد" لسيد هذا العالم العظيم.! وحقيقة كون المسلم عبدا هي الحقيقة التي تغيب عن أكثر المسلمين، فيحدث بسبب ذلك الانحراف بشتى ألوانه وأشكاله.

إن "العبد" مسلوب الإرادة. ليس بالمعنى الكلامي ولكن بالمعنى الوجداني، أعني أن تجد الشعور بأنك أيها المسلم مِلْكٌ لله الواحد القهار، تدور في فلك العبودية والخدمة كما تدور الكواكب في الأفلاك. ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (الزمر: ٦٠). وتلك هي مدارات اللفظ (عبد) في اللغة. إنها لا تخرج عن معاني الذلة والخضوع والخنوع والانقياد، كما تنقاد الأنعام المذللة لمالكيها رغبةً ورهبةً، انقياداً لا تشنّج فيه ولا تَفَلُّت.

والعبد لا يكون إلا في باب الخدمة بين يدي مولاه، واقفا على العتبة ينتظر الأمر والنهي بشوق المحب، ليبادر إلى التنفيذ دون سؤال: علامَ ولِمَهْ؟ ﴿لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٣). إنه الرب المحبوب الأعظم، المرغوب المرهوب، رب الكون والخلق أجمعين. يُمكنك أن تُعَرِّفَ عقيدة الإسلام في نهاية المطاف، فتقول إنها ميثاق المحبة بين الله وعباده،! أو هي دستور السلام.

وحينما نقول "المحبــة" فهي بمفهومها القرآني الجامع المانع، لا مـــا ذهبت إليه طوائف من الغلاة من هذا الاتجاه أو ذاك، ممن قالوا بها فأبطلوا كل منازل الإيمـــان من خوف ورجاء. فانتهى بهم الأمر إلى دعاوى عريضة يتشـــدقون بها، ما أنزل الله بها من ســـلطان. كلا، بل لا تقوم المحبة بقلب العبد الصادق إلا على جناحـــي الخوف والرجاء، وما تفرع عن ذلك من معاني الرَّغَبِ والرَّهَبِ. والقرآن العظيم والســـنة النبوية واضحان في هذا غاية الوضوح. ولا يزيغ عنهما إلا جاهل أو صاحب هوى. والمحب الحقيقي الصادق يخاف من الحرمان، ويخشـــى من العقوبة؛ بقدر ما يرجو ويشـــتاق. فإذا جرد المحبـــة عن الخوف والرجاء كان من الكاذبين.! كيـــف ورب العالمين يقول عن صفوة من أنبيائه ورســـله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَـــارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (الأنبياء: ٩٠). كيف وهذا محمد رسول الله ﷺ ســـيد الأولين والآخرين يعلنهـــا في الأمة: "أمَا والله إني لأخشـــاكم لله وأتقاكم له. [وفيه قال:] فمن رغب عن ســـنتي فليـــس مني" (متفق عليه). ألا وإن أي انحراف عن هذه الســـبيل لا يكون إلا جهلا بالدين أو زيغا من الضلال المبين.

فعلى هذا الوِزَانِ إذن نقول إن عقيدة الإســـلام قائمة على المحبة، بـــل إنها ميثاق المحبة. وبذلك المعنى كانت تفيض بأنوار الجمال ومباهج الجـــلال. فليس عبثا أن يقول النبي ﷺ: "إن الله تعـــالى قد حرم على النار من قال "لا إلـــه إلا الله" يبتغي بذلك وجه الله" (متفـــق عليه). أكلمة واحدة تتلفظ بها فتدخل الجنة؟ نعم، ولكنْ، إنها ليســـت بكلمة ولا كلمات، إنهـــا توجه قلبي وميل وجداني، إنها مســـألة "حب". وإن من أحب الله أحبه الله. إنها حقيقة جميلة وعظيمة. وإن عدم إدراكها ذوقا ووجدانا قد كان سببا في تضييع معاني الدين، وانحراف كثير من الناس عن منهاجه المستقيم. ■

(*) جامعة مولاي إسماعيل ورئيس المجلس العلمي بمكناس / المغرب.

الهوامش

(١) لسان العرب: مادة "أله".

(٢) المفردات في غريب القرآن: مادة "أله".

(٣) لسان العرب: مادة "وله".

(٤) مدارج السالكين لابن القيم، ٣/١٨.

(٥) مدارج السالكين: ٣/٢٦.





الخط الفاصل بين الإيمان والإلحاد:

البعث بعد الموت

أ.د. محمد بوزغيبة *

إنّ حياة الإنسان بعد موته هي الخيط الفاصل بين الإيمان والإلحاد، بين التّفسير الدّيني لحقيقة الإنسان الذي يجعل لحياته ومصيره معنى وغاية وهدفا لقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون:١١٥)، وبين التّفسير المادّي للإنسان الذي لا ينظر إلاّ إلى غذاء جسده، والذي ستنتهي مسرحيّة حياته بالموت والفناء.

فالإنسان متكوّن من مادّة وروح، والرّوح من سنن الله البديع يجعل للإنسان قيمة إلهيّة بما يبثّ من فضيلة ويزرع من خير وينشر من ضياء؛ فتتغيّر بذلك نظرته للحياة ويرى بعين البصيرة ما وراء النتائج العاجلة من سلوك النّاس وتصرّفاتهم.

يقول ابن عطاء السكندري في مواعظه: "لو أشرق لك نور اليقين لرأيت الآخرة أقرب إليك من أن ترحل إليها، ولرأيت محاسن الدّنيا قد ظهرت كسفةُ الفناء عليها". ففي المعتقد الدّيني لا موتَ إلاّ في هذه الحياة، فمن فارقها انتقل إلى حياة خالدة لا موت فيها. ولكنّ الفارق كبير والبوْن شاسع بين موت وموت؛ فموت المؤمن العارف فوز ونجاة، وموت الجاحد الكافر حرمان وشقاء.

دعت جميع الأديان السّماوية إلى الإيمان بالبعث والنّشور على لسان رُسُلها وأنبيائها. فنوح عليه السّلام قال لقومه: ﴿وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتًا ۞ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ (نوح: ١٧-١٨). وموسى عليه السّلام قال في دعوته: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ (طه: ٥٥). وعيسى عليه السلام قال وهو في المهد: ﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ (مريم: ٣٣).

ولقد وصف القرآن الكريم نكران عرب الجزيرة عقيدة البعث والنشور عندما قال تعالى على لسان معطّلة العرب مثلما سمّاهم الشّهرستاني في كتابه "الملل والنّحل": ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ (الجاثية: ٢٤).

لقد اقتضت الحكمة الأزليّة أن يُبتلى الإنسان بزينة الحياة الدّنيا وبالهوى، فكان بذلك عُرضة للفسوق والعصيان والغفلة والنّسيان والإعراض عن الحقّ. فأرسل الله إليه رسله وأنزل كتبه، وبيّن له مواقع رِضاه وغضبه، وأنّ النّعيم لا يدرك بالنّعيم، وأنّ أعظم اللّذات محجوب بأنواع المكاره، فلم تقوَ عُقول الكثيرين على إيثار الآجل المنتظر بعد فناء الدّنيا على هذا العاجل الملموس، بل إنّ خيالهم لم يتّسع لتصوّر نشر جديد بعد ظلمة القبر وفناء الجسد، وأنّا سنموت كما سننام ونُبعث كما سنستيقظ، ولاسيما العرب الذين لم يكلّفوا قطّ بشريعة، لوجودهم في فترة من الرُّسل بين جدّهم إسماعيل ومحمّد عليهما السّلام.[1]

البعث في القرآن والسُنّة

لقد استعمل القرآن الكريم في ردّه على منكري البعث على اختلاف اتجاهاتهم مختلف البراهين لإقناعهم بأنّ الساعة حقّ وأنّ الله يبعث من في القُبور. وتقوم عقيدة البعث على أصول لا بدّ من اعتبارها في عقيدتنا، وهي:

غاية الوجود

يوجّه القرآن الكريم الأنظار إلى أنّ الله تبارك وتعالى لم يخلق هذا الكون باطلاً ولغير هدف. يقول جلّ ذكره: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ ۞ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (الدخان:٣٨-٣٩). وبيّن سُبحانه أنّه لم يخلق الإنسان عبثاً، قال عزّ جلّ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون:١١٥).

تبين العقيدة الإسلاميّة أنّ الإنسان له حريّة عميقة في كيانه، لكنّها ليست حرّية الفوضى الخلقية التي تنتهي دائماً بتهديم الإنسان وتمزيق علائقه مع الوجود الخارجي من حوله.

فالحقّ الذي خلق الله تعالى به الكون يتنافى مع الفلسفة الوجوديّة المُلحدة؛ فليس ثمّة عبث كما يرى "ألبير كامو"، وليس ثمّة لامعقوليّة للحياة والوجود كما يرى "كافكا"، وليس ثمّة حرّية لاأخلاقيّة مُطلقة من كلّ قيد كما يرى "سارتر"، وليس ثمّة تناقضات نفسيّة لا نهاية لها تنتهي دائماً بالضياع كما يرى "دستوفسكي". ذلك أنّ الإسلام يستمدّ تجاربه الباطنيّة من خلال الحقيقة لا الزّيف، ومن الاستقامة لا الانحراف، ومن المعرفة لا الضياع.[٢]

وإنّ ارتباط الوجود الإنساني بمصيره هو النّقطة التي تفترق فيها الطُرق بين النّاس، لا في نظرتهم إلى الحياة وفلسفتهم فيها فحسب، بل في أخلاقهم ونمط سلوكهم ومدى إيمانهم. فالإيمان بمصير الإنسان بعد الموت يجعل لحياته غاية سامية وهدفاً أعلى. والقرآن الكريم حافل بآيات تُقيم الأدّلة على أنّ الكون ليس مهملا كما يزعم الملاحدة، بل خلق الخلق بالحقّ ليكون الابتلاء والاختبار الذي سيعقبه بعث للحساب والجزاء، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾(الملك:٢).

فالإيمان بالله تعالى يُحقّق المعرفة بالمصدر الأوّل؛ والإيمان بالبعث يُحقّق المعرفة بالمصير الذي ينتهي إليه هذا الوجود؛ وعلى ضوء المعرفة بالمصدر والمصير يمكن للإنسان أن يُحدّد هدفه ويرسم غايته، ويتّخذ من الوسائل والذّرائع ما يُوصله إلى الهدف ويبلغ به الغاية. ومتى فقد الإنسان هذه المعرفة، فإنّ حياته سوف تبقى بلا هدف ولا غاية. وحينئذ يفقد الإنسان سموّه الرّوحي ويعيش كما تعيش الأنعام. وهذا هو الانحطاط الرّوحي المدمّر لشخصيّة الإنسان والمنافي للحكمة الإلهيّة العُليا من هذا الوُجود.

نهاية العالم

تُؤكّد عقيدة البعث على فناء هذه الدّنيا وانتفاء أزليّة هذا الكون، ويؤكّد علماء الفلك حتميّة اختلال الأجرام السماويّة.[٣] ويؤكّد ذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ۞ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ۞ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۞ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۞ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ (الانفطار:١-٥).

جاء في كتاب "المعاد" قوله: "إنّ قانون الدّيناميكيّة الحراريّة يثبت أنّ الحرارة ليست دائمة إلى الأبد، وأنّ يوم انتهائها سيأتي حتماً، والكون يتّجه إلى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام وينضب فيها مَعين الطّاقة، ويومئذ لن تكون هناك عمليات كيميائيّة أو طبيعيّة، وذلك بحكم الانتقال الحراريّ المستمرّ من الأجسام الحارّة إلى الأجسام الباردة. ولا يمكن أن يحدث العكس بقوّة ذاتيّة، بحيث تعود الحرارة وترتدّ من الأجسام الباردة إلى الأجسام الحارّة، وعندئذ تقف حركة الحياة ويموت الأحياء".[٤]

سكرات الموت ونهاية الإنسان

ليس الموت ختاماً لمعنى الحياة وابتداء لحالة أخرى لا شعور فيها ولا إحساس معها، إنّما هو مرحلة تحوّل من طوْر إلى آخر. إنّ الموتَ هو الفجيعة الكبرى للجاحدين الذين سيعرفون بعد الموت كلّ شيء وسيُدركون أنّهم كانوا في ضلال بعيد، سيتمّ ذلك بعد فوات الأوان. تثبت العقيدة الإسلاميّة أنّ ما يقع للجسد من فساد لأجهزته وفنائه لا يؤثّر في حقيقة الرّوح ولا في كيان الإنسان المعنويّ.

ولقد عبّر القرآن الكريم عن لحظة الفزع ولحظة خروج الرُّوح من الجسد بسكرة الموت، قال جلّ وعلا: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ (ق:١٩). وقال ﷺ يوم مفارقته الدُّنيا وهو يمسح وجهه بالماء: "لا إله إلاّ الله إنّ للموت سكرات".

وإنّ أوّل منازل الآخرة هو القبر، فهو يضيق ويتّسع ويُظلم ويُنوّر بحسب مكانة صاحبه عند ربّه. والأدّلة على ذلك كثيرة، منها قوله ﷺ فيما رواه البخاري أنّه لمّا مات أبو سلَمة دخل عليه الرّسول ﷺ ثمّ قال: "اللّهم اغفر لأبي سلمة وافسح له في قبره ونوّر له فيه". أمّا الدّليل على سؤال الميّت في القبر ما أخرجه مسلم أنّ النبي ﷺ كان إذا فرغ من دفن ميّت وقف عليه وقال: "استغفروا لأخيكم وسلوا له التّثبيت فإنّه الآن يُسأل".

فالقبر فيه فتنة ووشحة وابتلاء وسؤال الملكين، والدّليل على وجود عذاب القبر الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه قال ﷺ: "إنّ أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشيّ، وإنْ كان من أهل الجنّة فمن أهل الجنّة، وإنْ كان من أهل النّار فمن أهل النّار، فيُقال هذا مقعدك حتّى يبعثك الله يوم القيامة". وممّا يؤكّد هذا الحديث قوله تعالى في آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ (غافر:٤٦).

فإنّ وقت الموت أو المرحلة بين الدّنيا والبعث هي حياة البرزخ الّتي قال فيها تبارك وتعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (المؤمنون: ٩٩-١٠٠). يقول القشيري: "من مات فقد دخل البرزخ، وما بين الموت والبعث فإمّا راحة متّصلة وإمّا آلام وآفات غير منفصلة".(٥)

وإنّ الأرواح متفاوتة في مستقرّها في البرزخ حسب شقاوة صاحبها وسعادته إلى أن يأتي اليوم الآخر. هذا اليوم العظيم الذين اهتمّ بـه القرآن الكريم اهتماماً بالغاً، فتناول حقيقة اليوم الآخر وما يكون فيه من بعث وحساب وجزاء، ثمّ ما يتبعه من حوض وصراط وشفاعة، واعتبره ركناً من أركان الشّريعة الإسلاميّة.

ويتجلّى هذا الاهتمام بكثرة ذكر القرآن الكريم لليوم الآخر، فلا تكاد تخلو سورة من الحديث عنه ولو في إشارة أو تلميح مع تقريبه إلى الأذهان، تارة بضرب الأمثال، وتارة بالحجّة والبرهان، وكثيراً ما نجد القرآن الكريم يتحدّث عن الدّنيا كأنّها ماضٍ كان، وعن الآخرة كأنّها الحاضر الآن.

الأدلّة الشرعيّة المثبتة للبعث

إنّ الموت في واقعه ليس انعداماً لأجزاء الإنسان، بل تفريقاً لها. وعندما تتعلّق إرادة الله بعودة الأجسام، يجمع هذه الأجزاء المشتّتة ويؤلّفها على حالتها السابقة جسماً وروحاً، وذلك هو المعاد. وما وقع لإبراهيم الخليل عليه السّلام لمّا سأل ربّه بقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾، وجواب الله تعالى له خير دليل على إعادة الخلق من جديد، قال تعالى: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ بمعنى أن يقطعها إبراهيم عليه السّلام إلى أجزاء صغيرة يختلط بعضها ببعض خلطاً غير قابل للتجزئة والتّمييز ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ (البقرة:٢٦٠).

قال الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: "يميّز الله تعالى أجزاء كلّ طير عن صاحبه ويجمع أجزاء كلّ واحد منها مستقلاً عن الباقي، فإذا اكتملت لكلّ طائر هيئته الخاصّة به أودع فيه الحياة حتّى يطمئن إبراهيم إلى هذه الحقيقة، ويتحقّق عِلْمه، وينتقل من معالجة الفكر والنّظر إلى بساطة الضرورة بيقين المشاهدة، وانكشاف المعلوم انكشافاً لا يحتاج إلى معاودة الاستدلال ودفع الشّبه عن العقل".(٦)

وهذا المثل القرآني الدّقيق صريح الدّلالة على أنّ الموت تفريق للأجزاء، وليس انعداماً لها كما يظنّ المفكّرون الذين استعظموا عودة الحياة الإنسانيّة بعد انقطاع الحواس وانفصال الشّعور عن الجسد.

والنّصوص القرآنيّة الّتي تُؤكّد إعادة الخلق والبعث والنّشور كثيرة ووفيرة منها قوله تعالى:

﴿وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا * أَوَلاَ يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْئًا﴾ (مريم: ٦٦-٦٧). ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ (الحج: ٦-٧). ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (فصلت: ٣٩). هذا نوع من قياس الدّلالة وهو "الجمع بين الأصل والفرع بدليل العلّة وملزومها" مثلما قال علماء أصول الفقه. فدلّ سبحانه في هذه الآية عباده

بما أراهم من الإحياء الذي تحقّقوه وشاهدوه على الإحياء الذي استبعدوه، وذلك قياس إحياء على إحياء واعتبار الشيء بنظيره، والعِلّة الموجبة هي عموم قدرته سبحانه وكمال حكمته، وإحياء الأرض دليل العلّة.

والقرآن الكريم إذْ يدعم عقيدة البعث بمختلف الوسائل والطُرق، فليس ذلك فقط على قرارٍ ألزم الله به نفسه، وإنّما على أحد مستلزمات العدل الإلهي والحكمة السّامية، حتّى لا تكون حياة الإنسان بلا غاية ولا هدف. إنّ حاجة الإنسانيّة ملحّة إلى الآخرة لضمان الخلود وإقامة العدل وتنظيم الحياة.[7] وهكذا، فإنّ الإيمان بالبعث كالإيمان بالله كلاهما لا يقبل شكّاً ولا تردّداً، لأنّ الفِطرة السليمة تنساق إلى هذا الإيمان.

فالإيمان بالله يعترف بالمصدر الأوّل للوجود، والإيمان بالبعث يعترف بمصير الإنسان فيه. ومن حُرم هذه المعرفة أضحت حياته كحياة الأنعام تقوده الأهواء وتُسيّره الغرائز. والله تعالى لم يخلق الإنسان بيديه، ولم ينفخ فيه من روحه ولم يأمر ملائكته بالسّجود إليه، ولم يحمّله الأمانة ولم يجعل له الخلافة، ولم يسخّر له ما في السّموات والأرض إلاّ ليجعل من وجوده غاية سامية تتّفق مع حِكمته العُليا وعدله المُطلق، حتّى لا تذهب جهود هذا الإنسان سدى مصداقاً لقوله جلّ ثناؤه: ﴿وَخَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (الجاثية: ٢٢). ■

(*) جامعة الزّيتونة / تونس

الهوامش

[1] بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، لمحمد شكري الآلوسي، ص ١٠٩.

[2] في النّقد الإسلامي المعاصر، لعماد الدّين خليل، ص ٤٢.

[3] الإسلام يتحدّى، لوحيد الدّين خان، ص ٨٢-٨٣.

[4] المعاد، لمحمد حسن آل ياسين، ص ٥٠.

[5] لطائف الإشارات، للقشيري، ٢٤٤/٤.

[6] التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٣٩/٣.

[7] عقيدة البعث في الإسلام، للتهامي نقرة، ص ١٤٠.



دموع وقلب

دموعك تمزق قلبي،
لا أحد يكفكف هذا الدمع...
أصيب العالم بسكتة دماغية خرساء...
مشاهد الآلام تمضي سريعًا،
دون أن تخدش ضميره،
كمن يجلس في صالة عرض
يشاهد فلمًا للراحة والتسلية
والظالم يزداد عتوّا كل يوم
أما رائحة الموت فقد ملأتْ أجواء الدنيا...





أنثرْ بذورك وامضِ ولا تلوِ على شيء،
ودعْ أيّاً كان يحصد ما بذرت...

***

قراءة في عنوان ما صنّف في الحديث والقرآن

تطور نظام العنونة في الثقافة الإسلامية

د.محمد جكيب*

ارتبط بزوغ شمس الحضارة الإسلامية وتطورها بتدوين المعرفة. وتعتبر العنونة مظهرا من المظاهر التي عكست ذاك البزوغ. فقد تطور نظام العنونة في الثقافة الإسلامية تطورا ملموسا تسرب إليه من الرقي الملموس الذي حققته مختلف الجوانب والمدنية والمعرفية. ولا شك في أن الإسلام كان العامل الأقوى المؤثر في هذا التطور لرسم الخطوات الكبرى والأولية لهذه الحضارة، بدءا من مركزية القرآن الكريم في صلب الحركة المعرفية الإسلامية.

العنونة في الثقافة الإسلامية

لم يعرف التاريخ كتابا تسمى بـ"القرآن"، فهو اسم خاص بالكلام المنزل على الرسول ﷺ. وعمليا يعد مصطلح "قرآن" أول عنوان الحضارة الإسلامية. فرغم كونه اسم جنس دال على "الكلام المعجز المنزل على النبي ﷺ، المكتوب في المصاحف، المنقول عنه بالتواتر المتعبد بتلاوته"[1] فقد وظف بدلالة عنوانية. والمتتبع لقصة كتابة القرآن يلاحظ أن الصحابة الذين اهتموا بتدوين القرآن كسيدنا عمر وأبي بكر وزيد بن ثابت وغيرهم من الصحابة ﷺ، كانوا يستعملون لفظة "قرآن" ببعد عنواني[2] للدلالة على هذا الخطاب المعجز.

وكان من الطبيعي أن تظهر للقرآن أسماء جديدة بعد أن جمع على عهد عمر ﷺ، يقول صبحي الصالح: "ويبدو أن تسمية القرآن "بالمصحف" نشأت على عهد أبي بكر، فقد أخرج ابن أشته في كتاب "المصاحف" من طريق موسى بن عقبة عن ابن شهاب قال: لما جمعوا القرآن فكتبوه على الورق قال أبو بكر: التمسوا له اسما. فقال بعضهم "السفر" قال: ذلك اسم تسميه اليهود. فكرهوا ذلك وقال بعضهم: "المصحف" فإن الحبشة يسمون مثله. فاجتمع رأيهم على أن يسموه "المصحف""."[3] وبذلك صارت اللفظة عنوانا جديدا للقرآن في شكلها الجديدة، وأصبح القرآن يحمل عنوانين:

- الأول متصل بطبيعة المادة، وهو عنوان توقيفي.
- الثاني متصل بشكل المادة التي أصبح عليها، وهو عنوان تواضعي وعملي.

وبهذا فـ"القرآن" و"المصحف" هما أقدم العناوين في تاريخ الثقافة الإسلامية، ويتربعان على قمة العناوين في عصر التدوين.

ولقد أصبح القرآن الكريم مع توالي الزمن منطلقا للعديد من المصنفات والمؤلفات والكتب التي تناولته بالشرح والتفسير، عارضة مختلف مواطن إعجازه، وكاشفة كنوزه المعرفية والدينية.

والعنوان موطن يجلي المجهود الذي صرفه العقل الإسلامي في هذا المجال، كمّاً وكيفاً. وللمس هذا الجهد نشير إلى أن تدوين المعرفة الإسلامية قد مر إجرائيا بثلاث مراحل أساسية هي: مرحلة الجمع والنقل، ثم مرحلة التدوين، وأخيرا مرحلة الترتيب والتصنيف.

تعد المرحلة الأولى حاسمة لتركيزها على تحصيل ما في الصدور من معارف؛ وتطلب ذلك جهدا كبيرا تجسد في شدة الحرص على طلب كل ضروب المعرفة، ووضع الأسس الواقية من الوقوع في الزلل، والتثبت من صحة ما يجمع وينقل.

وأما المرحلة الثانية فكانت مرحلة التدبر فيما تم جمعه وتدوينه، تمهيدا للاستفادة منه في فهم القرآن والحديث في المقام الأول، والعلوم الأخرى التي نشأت على هامش الأصول الكبرى في المقام الثاني. وهي المرحلة التي صنفت فيها أمهات الكتب التي وضعت الثوابت المعرفية الأساسية للثقافة الإسلامية.

وأما المرحلة الثالثة فيمكن اعتبارها مرحلة إعادة التأمل فيما تم تدوينه من معارف بالشرح والتعليق والتفسير وضع الحواشي.

ولكل مرحلة عناوينها المبرزة لطبيعة النشاط السائد. ويكفي العودة إلى المصنفات التي اهتمت بالتأريخ للمجهود الذهني كـ"الفهرست" لابن النديم و"تاريخ آداب العربية" لكارل بروكلمان و"تاريخ التراث العربي" لفؤاد سزكين، للوقوف على مدى التلاحم بين العنوان وطبيعة المرحلة تأليفا وتصنيفا والنشاط المعرفي السائد.

علوم القرآن ونشوء مدارس القراءات

فالنصف الثاني من القرن الهجري الأول كان هو البداية الفعلية للعنوان التخصيصي في علوم القرآن، ونشوء مدارس القراءات، التي تكونت حول عدد من التابعين الذين تلقوا القراءات عن الصحابة في المدينة والكوفة والبصرة. وأقدم كتاب معروف في الموضوع كتاب عنوانه "كتاب في القراءات" ليحيى بن يعمر (ت:٨٩ هـ / ٧٠٧م)، وهو أحد تلاميذ أبي الأسود الدؤلي؛ وكتاب آخر لعبد الله بن عامر اليحصبي (ت:١١٨هـ / ٧٣٦ م)، وعنوانه "اختلاف مصاحف الشام والحجاز والعراق". والراجح أن كتبا أخرى قد جرى تصنيفها في هذه المرحلة في ضوابط القراءة وقواعدها، وفي اختلاف المصاحف المستعملة في مختلف الأمصار، ولكن عناوينها لم تصل إلينا.

ويلاحظ في عناوين هذه المرحلة، على قلتها، إشارتها إلى المضمون إشارة مباشرة، زيادة على بساطة تركيبها، وأصالتها، وهي لا تعطي الانطباع بوجود تخصيص لمجال دون آخر.

لقد أصبح القرآن موضوعا للتأليف والتصنيف منذ زمن متقدم جدا، إذ لم تكد تصل نهاية القرن الأول الهجري حتى كانت تصانيف بعض علوم قد أخذت مكانتها، وبدأت شخصيتها تتبلور. وتميزت عناوين هذه المرحلة بمميزات أهمها:

١- البساطة، وتتجلى في الإحالة على طبيعة الجهد الذي لا يخرج في الغالب عن دائرة القراءة والتفسير.

٢- الإحالة المباشرة على المضمون، والابتعاد عن التكلف اللغوي، والإطناب. ولذلك مبررات أهمها طبيعة المجال المشتغل فيه وهو القرآن الكريم الذي يحتم عدم التكلف؛ وطبيعة المرحلة التي تتميز بكونها بداية محتشمة ومسكونة بإعطاء فكرة صادقة عن المضمون دون زيادة.

٣- سيطرة النزعة التقريرية في بعض العناوين، وهو ما يفسر طول بعضها، كـ"كتاب اختلاف مصاحف الشام والحجاز والعراق".

٤- تشابه عدد من العناوين في الصيغة كـ"كتاب المقطوع والموصول" الذي نجده عند عامر وعند حمزة الزيات، وكـ"كتاب القراءة" الذي نجده عند "ابن كثير" وعند "نافع". ويرد ذلك إلى عدم نضج فكرة العنوان لدى المصنفين الأوائل. فغالبا ما يضاف مضمون الكتاب إلى مصنفه، وتلك ممارسة تجد تعليلها: في قلة المصنفات مقارنة بالمراحل الآتية، وفي الحرص على الرواية الصحيحة التي تستند على التأكد من هوية المصنف، وهو مرتكز أخلاقي وحضاري سيفتح الباب لظهور علم الجرح والتعديل.

٥- الراجح أن عددا من الكتب والرسائل لم يصل إلينا في الشكل والصورة التي صيغ بها ويحتمل أن تكون العناوين الحقيقية لهذه المصنفات ضاعت وعوض بها عناوين تقريرية ومباشرة، وهو ما يرجح تناقلها مشافهة في أول الأمر، ثم تدوينها بعد ذلك.

٦- وأخيرا فإن أصالة هذه العناوين ظاهرة وواضحة. فلا أثر فيها للمؤثرات الأجنبية الدخيلة، فهي من صميم الدين الجديد.

وعلى العموم ففكرة صياغة العنوان لم تكن واضحة وجلية نظرا للأسباب التي ذكرنا. فالإشارات الواردة في عناوين هذه المرحلة تعبر بشكل من الأشكال عن المدونة. فإذا قيل مثلا "كتاب ابن عباس"، فهذه العبارة عنوان على مدونة لابن عباس دوّن فيها ما فسره من آي القرآن الكريم وملاحظات أخرى.[٤]

إن الغالب على عنوان هذه المرحلة هو الطابع التداولي الرامي إلى التسهيل على الراغب في التعرف على المضمون، مع ربطه بالمصدر المتمثل في اسم المؤلف. وإذا كان ضبط القراءة والتفسير هو عمق الجهد المطلوب في هذه المرحلة، فإن علة ذلك هي

الحاجة إلى الفهم الصحيح للقرآن والمحافظة عليه.

وأمـــا بخصوص الحديث فالمؤكد تاريخيـــا أن تدوينه كان بدأ على عهد الرســـول ﷺ، فقد روى الإمام أحمد في مسنده أن عبد الله بن عمر كان يكتب الحديث عن رســـول الله ويكتب كل ما يســـمعه عنه، وكان الرســـول ﷺ يؤيده في ذلك، وكان عبد الله يســـمي الرقعة التي كتب عليها الحديث "الصادقة"[٥] التي نعتبرها أول مدونـــة في الحديث وأول عنوان فيه. ويوازيها عنوانا آخر هو "الصحيفة الصحيحة" وأطلقه همام بن منبه على مجموع الأحاديث التي سمعها عن أبي هريرة ﷺ. وتأثير العنوانين في المصنفات الحديثية ســـيظهر جليا في تصانيف كثيرة لاحقـــة. فقد عنونت الكثير من كتب الحديث بـــ"الصحيح"، ولســـنا هنا بصدد التأريخ لتدوين الحديث، ولكننا نرغب في تتبع التطورات التي عرفها عنوان المصنف الحديثي، لأنه يكشـــف عن قدر من التطور المنهجي والمعرفي الذي عرفه هذا المجال الذي توج في القرن الثالث الهجري بظهور أغلب المجامع الصحيحة التي تمثل عصارة جهود جمع الحديث ونقله من أفواه الرواة وصدور العلماء والمدونات المتفرقة.

العنونة وتدوين الحديث

وفيما يرجع إلى العنونة، فقد تطـــورت موازية لتدوين الحديث والتأليف فيه. يلمس ذلك من خلال بعض الكتب المصنفة خلال المراحـــل الثلاثة مثـــل "صحيفة" عبد الله بـــن عمرو بن العاص (الصادقة)، و"صحيفة" جابر بن عبد الله، و"الحديث" لنبيط بن شريط الأشحصي الكوفي وأمثالها من المصنفات.

الطابـــع الغالب على هذه العناوين هـــو عدم خروجها عن الإشـــارة إلى طبيعة المصنف، بالاكتفاء بالإحالة على المادة التي كتب عليها النص (صحيفة)، أو بنوعية المادة المكتوبة (حديث)، ونســـبة ذلك إلى مدونها أو الذي وجدت عنده ساعة التصنيف والجمع، دون الاعتنـــاء بموضوع المصنف أو محتواه. الأمر الذي يسمح بأن نتصور بنية العنوان على هذه الصيغة: الحالة (حديث أو صحيفة) + اسم المصنف.

ولا تعكـــس هذه العناوين وعي العقـــل خلال هذه المرحلة بأهميـــة العنوان، لأنه لم يكن غاية في ذاتـــه؛ فقد ظل مجرد دال على شكل ومضمون المعنون. الأمر الذي يعكس انشغال علماء الحديث برغبة الإســـراع في تدوينه مخافة موت حملته الذين مات عدد منهم في الفتوحات، وسيعرف هذا الجهد فيما بعد بمصطلح "تقييد الحديث".

مهدت هذه مرحلـــة لظهور العلوم الـــتي تهتم بـــ"تصنيف الحديث". وشـــكلت بعـــض هذه المصطلحـــات وغيرها على الأرجح اللبنات الأولى لظهور كتب كثيرة تحمل عناوينها عبارة: "مصنف"، و"سنن"، و"موطأ"، و"جامع"، و"صحيح".

تتميز العناوين التي تمتد إلى حدود القرن الثالث الهجري بغلبة الطابع الموضوعاتي الذي يكشـــف عن وجـــود نزعة تقريرية في أغلب العناوين إن لم نقل كلها، إذ تحمل كل مدونة عنوانا يحيل على موضوعها (الأحاديث، كتاب الدعاء، كتاب الصلاة).

والمتنعم في الأسماء سيلاحظ أن العنوان ظل ميالا إلى البساطة إلى حدود القـــرن الثاني الهجري، ولم تخرج هذه البســـاطة في الغالـــب عن إطار كلمة أو كلمتين (كتاب الســـنن، أحاديث، المناسك...). وسيعرف النصف الأول من القرن الثالث تغييرا في بنية العنوان بميلـــه إلى التركيب (كتاب الأمالي في آثار الصحابة - معرفة الرجال وســـؤالات إبراهيم بـــن عبد الله الجنيد الختلي - كلام يحيى بن مصعب في الرجال "كتاب المجروحين"). كما تجسد هذه العناوين دخول الحديث وعلمه مرحلة جديدة تميزت بالرغبة في التحديد وتدقيق الإشـــارة إلى المحتوى وضبط المادة، مما يعد امتدادا لطبيعة العنوان في المرحلة السابقة، ولكن مع ميل إلى التعامـــل مع الحديث في إطار موضوعـــات دقيقة، ككتاب المناسك، وكتاب الجهاد، وكتاب الصلاة، وكتاب البر والصلة.

ونلمس في عدد من العناوين البواكر الأولى لاستقلال كل علم من علوم الحديث بشخصيته وتخصصه كـ"معرفة الرجال"، و"طبقات الرواة"، التي حملت في أحشائها بوادر بعض علوم الحديث الأساسية كعلم الرجال أو علم الجرح والتعديل أو طبقات المحدثين.

وتبدو هذه العناوين في الأخير أحادية الاتجاه لكونها مسكونة برغبـــة إخبار المتلقي بالمضمون في المقـــام الأول. الأمر الذي لا يترك مجالا للعناية بالعنوان من الناحية الفنية، نظرا لسيطرة النزعة النفعية في بعدها الأخلاقي الديني على كل العناوين.

علـــى الرغم من عدم وجود حـــدود صارمة تفصل مرحلة ســـابقة عن أخرى لاحقة في مجال المعرفة، فإن المرحلة اللاحقة ســـتعرف دخول علم الحديث مرحلة جديدة شكلا ومضمونا. وقـــد عكس العنوان هذا التحول الذي تجســـد في العطاء الكثير وظهور أئمة الحديث الكبار كالبخاري ومسلم والترمذي.

إن الملاحظة الأساســـية التي تنطق بها مؤلفـــات هذا القرن هي غزارة التصنيف في هذه المرحلـــة، فهي كثيرة يمكن العودة إليها في الكتب التي تؤرخ للتراث. فالقرنان الثالث والرابع عرفا حركة فكرية نشيطة في كافة المجالات. وعلم الحديث أحد تلك المجالات التي تجســـد فيها النضج الفكري والحضاري للثقافة.

والمتأمل في هذه العناوين سيلاحظ توجهها إلى:

١- الموســوعية، وتتجلى في الدلالة على عمق الاستقصاء والجمع (الجامع الصحيــح - التاريخ الكبير - كتاب الطبقات - كتاب السنن...).

٢- التخصــص، ويتمثل في تدقيق موضوع الكتاب (كتاب الضعفاء - كتاب الكنى - كتاب رفع اليدين في الصلاة - كتاب العلل - كتــاب الجمعة...)، ويتمثل كذلك في بروز هوية أهم علوم الحديث كعلم الرجال المرتبط بعلم الجرح والتعديل، وعلم الرواة وطبقاتهم.

وإضافة إلى ذلك فإن الطابع التاريخي صار ميزة تســيطر على أغلب العناوين نظرا لارتباط علم الحديث بالتوثيق، وضرورة التيقن من سلامة رجال الحديث ونزاهتهم، إضافة إلى عامل المدة الفاصلة بين عصر هؤلاء المؤلفين وعصر الرسول ﷺ والصحابة والتابعين.

أسباب العنونة الطويلة

وعلى مســتوى الصياغة بقي عنوان هذه المرحلة مشــدودا إلى صورة الصياغة القديمة من حيث البســاطة، وغلبة البنية الاسمية، وانعدام التركيب إلا نادرا، والارتباط المباشــر بالمضمون، الذي أدى في بعــض الأحيان إلى صياغة عناوين طويلة دون أن يصبح ذلك قاعدة كـــ"تســمية الإخوان الذين روي عنهم الحديث" وكـــ"معرفة المجروحين من الرجال". ويجسد الطول النسبي لهذه العناوين التطور الذي عرفته مضامين المؤلفات والتي بدأت تجمع بين الجمع والشــرح والتفسير. فصياغة العنوان أصبحت تتم في ضوء الحرص على تقديم صورة دقيقة عن المؤلف. ويلمس ذلك بالعودة إلى "الجامع الصحيح" للبخاري. فقد قســم إلى كتب، ويدل مصطلح كتاب على الجزء أو الفصل، ولا يتجاوز العنوان مصطلح "كتاب" مضافــا إلى كلمة واحدة تدل على الموضوع المراد الوقوف عنده كـــ"كتاب الإيمان، وكتاب العلم، وكتاب الوضوء...". وهــي بنية مركزية يجري تقســيمها إلى أبواب، ويحمل كل باب عنوانا قد يتســع طوله بحسب تشعب الموضوع كـــ"باب الإيمان، وباب ســؤال جبريل النــبي ﷺ عن الإيمان والإسلام...". وكان البخاري حريصا فيما يبدو على أن يكون للباب عنوان يدل على مضمونه دلالة واضحة وبســيطة تسهل على المتلقي الوصول إلى مبتغاه.

ومن هنا يمكن القــول إن البخاري في جامعه قد كان معنيا بمتلقيه؛ فالبعد التداولي في بنية العنوان التي تنطلق من استكناه أفق انتظار المتلقي يتحكم فيها عاملان؛ عامل ديني يتمثل في تسهيل الوصول إلى القضية الدينية كما وردت عن الرسول ﷺ، وعامل موضوعي يتمثل في تنظيم المعرفة الدينية المتضمنة في الصحيح.

ونظرا لأهمية صحيح البخاري في حياة المسلمين الدينية، لقي عناية كبيرة جدا. والعناوين المصنفة على هامشه شرحا وتفسيرا وضبطا تجســد ذلك. وهي جهود بدأت مع تصنيفه واستمرت إلى حدود القرن السابق، بل وما تزال إلى اليوم. وأهم ما يسجله المتأمل فيما صنف على هامش هذه الموســوعة هو الكثرة والدقة والموســوعية والتنوع. وهي عناصر تحمل أكثر من دلالة، نتبينها من خلال تحليل بعض النمــاذج العنوانية مثل "منحة الباري في جميع روايات البخاري"، و"شــرح مشكل البخاري"، و"العقل الجلي في حل إشــكال الجامع"، و"الإفهــام لما في الصحيح من الإبهام"، و"نفحة المســك الدّاري لقــارئ صحيح البخاري"، و"المتجر الربيح على الجامع الصحيح...".

تدل هذه العناوين دلالة مباشرة على مضامينها، وهي تحمل في طياتها بعدا دلاليا دقيقا يدل على حاجات المتلقي المتزايدة إلى الجامــع الصحيح، تبعا لتغير أوضــاع الحضارة؛ وتدل من جهة أخرى على تبعيتها إلى مصدر واحد ترفع من قيمته التداولية بين الناس مع عمق الإشارة إلى الموضوع المعالج.

ومن الخصائص المتصلة ببعض العناوين، تمثيلها لطبيعة المرحلة مــن الناحية الفنية. فابتداء من القــرن الثامن أخذ العنوان يأخذ مســلكا غير معهود من قبل، وهو ســيطرة الصنعة في بنائه من خلال التركيز على التناغم الموسيقي المتمثل في السجع والجناس والطبــاق. فالعنوان كغيره من ضــروب المعرفة الأخرى عكس مســتوى الضعف الذي عرفه العالم الإسلامي والذي تجسد في العناية بالأشكال قبل المضامين، وإن كانت هذه الصنعة تعكس عناية بالمتلقي. كما تعكس بعض العناوين صورة الحياة التي عاشها المسلمون على امتداد الرقعة الإسلامية، ويتجلى ذلك في الرياض والرياحين والأنهار والأزهار الــتي تضمنتها بعض العناوين مثل كتاب "روضة العقلاء ونزهة الفضلاء".

وحسبنا في هذه العجالة أن ننبه المهتمين والباحثين إلى قيمة البحث في مجال العتبات التي يتحتم المرور منها قبل الولوج إلى النص. ■

---

[*] جامعة شعيب الدكالي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الجديدة / المغرب

الهوامش

[1] مباحث في علوم القرآن، لصبحي الصالح، ص٢١.
[2] المصدر نفسه، ص٦٩-٧٠.
[3] المصدر نفسه، ص٧٧-٧٨.
[4] العنوان في الأدب العربي، لمحمد عويس، ص١٠٥.
[5] الطبقات الكبرى لابن سعد، ٤/٢٦٢.



مع النبي ﷺ في أحزانه

أ.د.إسماعيل لطفي جقان*

إن سبر أعماق أي إنسان صعب جدًّا، فالجوانب الأعماقية ليست سواء عند كل الناس، فالكلامُ عن الحالة النفسية لشخص ما -حتى ولو كان إنسانا عاديًّا- ليس بالأمر اليسير؛ لأن هذا الجانب موضوع ذاتي يختلف من شخص لآخر. فما بالك إذا كان الحديث عن العوالم الداخلية للنبي المصطفى (عليه أكمل التحايا) الذي هو معلّم جميع البشر ومرشدهم؛ لأن عالمه الداخلي ﷺ يتضمن أمثلة عالمية مثالية. فالذين حاولوا أن يقصّوه ﷺ علينا من الناحية الخَلقية والخُلقية يَلفتون أنظارنا إلى كونه ذا وجه طليق دائم الابتسام، وذا مسحة حزن خفيفة تغشى وجهه الكريم، ويركّزون على هذا الوصف. فكون المرء في آن واحد محزونا من ناحية ومتبسما من ناحية أخرى نعتقد أنه خاصّ بالرسول ﷺ. فحزنه عليه السلام حزن محبَّب، كما أنّ ابتسامه ابتسام وقور، وهذا يدل على صعوبة الكلام عن حياته ﷺ الروحية والمعنوية.

ومن هنا عندما نلقي نظرة على ما أُلّف عن رسول الله ﷺ نجد الكتب التي تتحدث عن عالمه الداخلي هي قلة قليلة جدًّا. ويؤيد قولنا هذا -ولو من جهة أسماء الكتب- كتاب صلاح الدين المنجّد المسمى بـ"معجم ما أُلّف عن رسول الله ﷺ".[1]

نريد أن نتحدث في مقالنا هذا عن موضوع لم نر في الكتاب المذكور آنفا اسم أي بحث عنه، وهو "حزن النبي ﷺ". ففي الكتب المشهورة حول سيرته ﷺ من أمثال "الشّفا بتعريف حقوق المصطفى" للقاضي عياض، و"زاد المعاد" لابن القيم،

و"المواهب اللدنية" للباجوري، لم نعثر على موضوع تحت عنوان "حزن النبي ﷺ". ولكن من البديهي أن المواضيع والأحداث التي تسبّبت في حزنه ﷺ، هي في غاية الأهمية من حيث كونها تنمّ عن حياته الوجدانية والروحية.

العبد الأسوة والنبي الخاتم محمد ﷺ في حزنه وألَمه أيضا هو أسوة لأمته والإنسانية جمعاء. فهو الأنموذج المثالي الذي يمثل القمة العليا في كافة الأعمال الفاضلة التي تناسب طبيعة الإنسان وفطرته التي فطره الله عليها. ومن ثم فهو قدوة في عواطف الحزن والألم كذلك، وهي من الجوانب الفطرية للإنسان. وهل التربية سوى تهذيب العواطف والسلوكيات!..

فحزنه ﷺ من حيث كونه قُدوة للأمّة، ورسولاً للهداية، ومرشداً، ومعلمًا، ومُصلحًا، ورئيسًا للدولة، يختلف تمامًا من حيث العمق والمستوى عن حزنه وتألُّمه كإنسان، كأب، كصديق، كزوج ..إلخ. ولكن من الصعب جدًا تمييز هذه الحالات عن بعضها أثناء كل حادثة؛ ولذلك حاولنا تقديم الموضوع ككلّ ولم ننهج طريقة تقسيم حالاته المذكورة من حيث "كونه بشرا" و"كونه رسولا"، وإن بدا التقسيم الموضوعي أكثر منطقيا. فعلى هذا سنقدم باقة من حياته ﷺ التي تشكّل مثالا ومقياسا في حزن المؤمن وألمه.

بادئ ذي بدء نريد أن نلفت الأنظار إلى قاعدة وهي أن الأنبياء عليهم السلام لا يرفعون آلامهم وأحزانهم إلا إلى الله تعالى. وقد سجل هذا وأعلن على لسان يعقوب عليه السلام في القرآن الكريم: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ﴾ (يوسف:٨٦). أما نبيّ الحزن ﷺ فقد شكا حزنه أثناء عودته من الطائف إلى ربه قائلا: "اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملّكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضَب فلا أُبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقتْ له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، أو يحلّ عليّ سخطك. لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك."[٢] ورفعُ النبي ﷺ أحزانَه إلى الله تعالى ليست خاصة بحادثة، بل هي عادة جارية في كل أموره.

ونلاحظ الصّادق المَصدوق ﷺ يعبر عن مدى اطمئنان قلبه أثناء الهجرة في غار ثور عندما يهدّئ رَوع صاحبه أبي بكر ويخفف من وطأة حزنه قائلا: ﴿لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ (التوبة:٤٠). فكونه في منتهى الثقة والاطمئنان في تلك اللحظة المرعبة وطمأنته لصديقه الصدّيق ما هي إلا ترجمة فعلية منه ﷺ بلسان القال والحال لقول الله تعالى ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة:٦٧). إن حزنه وقلقه في ذلك الموقف العصيب لم يكن بسبب ما يمكن أن يتعرض له من أذى أبدا، إن حزنه كان أوسع وأضخم من ذلك بكثير، إنه حزن عظيم يحتضن أمته والناس أجمعين. وقول الله جل جلاله ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ (التوبة:١٢٨) يدل على صحة هذا المعنى.

أما شفقته وحنانه ورأفته، ورغبته وحرصه على اهتداء الناس إلى الطريق القويم كان يقض مضجعه ولا يدعه يتذوق حلاوة النوم، وقول الله تعالى ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء:٣) أفضل ما يعبر عن هذا المعنى. فذات مرة جاء المشركون إلى سيد الأنام ﷺ وسألوه عن بعض الأمور، فقال لهم رسول الله ﷺ: "أُخبرُكم بما سألتم عنه غدا"، ولم يستثن، فانصرفوا عنه. فمكث ﷺ -فيما يذكرون- خمس عشرة ليلة لا ينزل الله إليه في ذلك وحيا، ولا يأتيه جبريل. فحزن سيد الأوّابين ﷺ لانقطاع الوحي عنه، وشقّ عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل من الله جل جلاله بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجل الطوّاف، والروح.[٣] وقوله تعالى ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (الكهف:٦) يدل على حالته ﷺ الروحية أثناء هذه الأحداث. فهذه الآيات تدل على مدى استشعاره -كرسول الهداية- بالآلام، وضخامة حزنه من أجل إنقاذ البشرية. ونعتقد أن "حزن النبي ﷺ" هو متمركز في هذه النقطة؛ وأن محور حزنه ﷺ هو الإيمان، ومركزه الهداية: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلاَ يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (لقمان:٢٣)... فهذه الآية دليل قرآني على هذه الحقيقة، فحزنه ﷺ كان ساميا وفريدا من نوعه.

ومن ناحية أخرى لم يكن سيد الأنام ﷺ ملاكًا، فمن الطبيعي أن تَظهر عليه بعضُ الحالات المتوقّعة من البشر. ولكنه عاش حياة نموذجية ومثالية للغاية على مستوى عالميّ بدَت معالمها وانعكاساتها على عواطفه وأحاسيسه بنفس المستوى وبمنتهى الاتزان.

إن دعوة لم تتغذ بالأحزان ولم تتقلب بالهم والآلام لن تثمر أبدا. إن الدعوة إذا فشلت في مخاطبة عواطف الإنسان السامية وإثارة مكامن الحزن المقدس، فلن تكون دعوة الإنسانية جمعاء، ولن يكون أصحابها دعاة حقيقيين.

يروي لنا القاضي عياض (٥٤٤هـ/١١٤٩م) رحمه الله في



كتابه "الشفا" عن علي ﷺ، أنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن سنّته، فقال: "المعرفة رأسمالي، والعقل أصل ديني، والحب أساسي، والشوق مركبي، وذكر الله أنيسي، والثقة كنزي، والحزن رفيقي".(٤)

والذين يصفونه ﷺ يركّزون على حزنه المتواصل وديمومة فكرته، قال ابن أبي هالة: كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة...(٥) ذكر هؤلاء "الحزنَ" و"الفكرة" معًا يعني أنه ﷺ قد جمع بين المشاعر السامية والتفكر. فسيّد البشر ﷺ كان يُظهر فرحه بابتسامة؛ أما إظهار حُزنه أحيانا فكان بإهراقه الدموع الساخنة، وأحيانا بتكراره عبارة أكثر من مرة، وأحيانًا -ولو بنَدرة- بالدعاء على مَن أحزنوه؛ لأن الدموع إن كانت نوعا من إظهار الحزن، فالدعاء على المتسبّبين للحزن هو طريق آخر لإظهار الحزن.

١-كونه ﷺ صَديقا وقريبا

من ناحية أخرى ما حزن رسول الله ﷺ حزنا يسئمه من الحياة، ولكن فقدان أحبائه قد أحزنه مثلما يحزن أي إنسان. فالعام الذي توفيت فيه زوجته خديجة رضي الله عنها، وعمه وحاميه أبو طالب كان "عام الحزن" لجميع المسلمين وعلى رأسهم النبي ﷺ.

ويوم استشهد جعفر بن أبي طالب ﷺ، ذهب النبي ﷺ إلى بيت جعفر وضمّ أولاده إلى صدره، ومسح رأسهم بشفقة وبكى. فعَن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ، أنها قالت: "لمّا أتى نعي جعفر عرفنا في وجه رسول الله ﷺ الحزن."(٦)

ولما أصيب زيد بن حارثة في معركة "مؤتة"، أتاهم النبي ﷺ، فجهشت بنت زيد، أي تحركت وهمّت بالبكاء في وجه رسول الله ﷺ فبكى رسول الله ﷺ حتى انتحب. فقال له سعد بن عبادة: يا رسول الله ما هذا! قال: "هذا شوق الحبيب إلى حبيبه"(٧)

٢-كونه ﷺ مهاجرًا

فقد اضطر مَفخرة الإنسانية ﷺ إلى الهجرة من مكة تحت ضغط المشركين. وفي أثناء الهجرة اتجه نحو مكة واقفا على الحزورة، فقال: "ما أطيبك من بلد وأحبك إليّ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك".(٨)

إذا كانت مشاعر الحزن المؤلمة تغمر جوانح الإنسان -لا محالة- لدى فراقه لمنزله أو قريته أو مدينته بإرادته، فما بالك إذا كان هذا الفراق بسبب الاضطهاد والإبعاد، وإذا كان هذا الشخص رسول الله ﷺ. فهو بكلماته المؤثرة عبر عن أحاسيسه نحو كعبة التوحيد في إطار بشري طبيعي مشيرا إلى مصدر حزنه ﷺ الحقيقي.

٣-كونه ﷺ أبًا

النبي ﷺ قد حزن على ولده إبراهيم وحفيده من زَينب أثناء وفاتهما، وعبّر عن مدى حزنه بسكب عبراته الشريفة. فلنتابع معًا الرواية في هذا الصدد:

عن أنس بن مالك ﷺ قال: دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبي سيف القين، وكان ظئرا لإبراهيم ﷺ، فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقبّله وشمّه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك، وإبراهيم يجود بنفَسه، فجَعلت عينا رسول الله ﷺ تَذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف ﷺ: وأنت يا رسول الله؟ فقال: "يا ابن عوف، إنها رحمة". ثم أتبعها بأخرى، فقال ﷺ: "إن العين تدمع والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزنون"(٩)

وبقوله الشريف هذا عبّر عن عمق تأثر مشاعره بموت ولده.

فشَرَف نوع الإنسان ﷺ -بلا شك- كان يفصح عن أسمى وأمجد أحاسيس حزنه نحو ابنه. وقد أظهر لنا كيفية تصرف المسلم المثالي حيال تلك الظروف، وأثبت ﷺ أن البكاء ودمع العين وحزن القلب لا يخالف شأن الرجولة، وأن الصراخ وتمزيق الملابس وشق الجيب وراء الميت ليس من شأن المسلم ولا يليق به.

٤-كونه ﷺ زوجًا أو ربَّ أسرة

النبي ﷺ كزوج عاش أحزانا كثيرة... عاش حزنا بفقدان أُمّنا

خديجة رضي الله عنها وذكرياتها حيّة في ذهنه دائما.. وعانق الحزن بافتراء المنافقين على أُمّنا عائشة الطاهرة رضي الله عنها في حادثة "الإفك".. وتجرّع الحزن بالابتعاد عن أزواجه تسعة وعشرين يوما في حادثة "الإيلاء". وفي جميع هذه الحالات عانى الرسول كزوج وربّ أسرة من أحزان عميقة بأبعادها المختلفة، حتى إن الحزن الذي كابده أدّى به أحيانا إلى المقاطعة والتَّرك.

٥-كونه ﷺ قائدًا وإمامًا

لمّا جاء رسولَ الله ﷺ خبرُ بئر معونة وقتل سبعون من صحابته الكرام ظهر حزنه ﷺ بالدّعاء عَلَى قَتَلَتِهم قائلاً: "اللهم اشْدُد وَطْأَتَك على مُضَر، وَاجعَلها عَليهم سِنِينَ كَسِنِي يُوسُف، اللهم عليك ببني لِحيَان وعضل والقارة وزغب ورعل وذكوان وعصية فإنهم عصوا الله ورسوله"(١٠) فعندما يصف لنا أَنَس بن مالك ﷺ حالة النبي ﷺ آنذاك يقول: "ما رأيت رسول الله ﷺ وجد على شيء قط ما وجد على أصحاب بئر معونة".(١١)

فدُعاء النبيّ المرسل رحمةً للعالمين ﷺ على مضر من أجل شدة حزنه، له معان خاصة جدًّا؛ لأن منع تبليغ الإسلام وقتل العلماء بنصب كمين لرجال الإرشاد والعلم الساعين في نشر الدين الإسلامي قد دفع الرسول ﷺ إلى حزن بالغ. وبدعائه ﷺ على المجرمين طوال شهر بالهلاك، كان يعلن هذه الجريمة الشنيعة إلى كل العالم بأسلوب بليغ. ونعتقد أن هذا الدعاء النبوي بالهلاك، في الآن نفسه موجَّه إلى من يقف ضد تبليغ الإسلام ودعاته وفي جميع الأزمنة.

٦-أسباب أخرى لحزن النبي ﷺ

نرى نبي الحزن ﷺ قد حزن من تصرفات بعض أصحابه خاصة وأمته عامة، وقام بالإفصاح عن حزنه لمن حوله. وفيما يلي سرد لبعض الأمثلة.

أ-التباطؤ في الامتثال لأوامره ﷺ

لما واثق رسولُ الله ﷺ المشركين في الحديبية عام الحديبية وحال كفار قريش دون البيت، أَمَر رسول الله ﷺ المسلمين أن ينحروا ويحلوا، ولكن ما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات. فلما لم يقم منهم أحد -لأن بعضهم كان قد استثقل بعض موادّ الصلح، وبعضهم لا يزال يأمل في العمرة- قام فدخل على أمّ سلمة رضي الله عنها فذكر ذلك لها. فقالت أمّ سلمة: "يا نبي الله! اخرج ثم لا تكلم أحدا منهم بكلمة حتى تنحر بُدْنك وتدعو حلاقك فتحلق". فقام فخرج فلم يكلم منهم أحدا حتى فعل ذلك، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا، ففعلوا ولكن بعد توقف منهم كان قد أغضب رسول الله ﷺ. وفي رواية عندما أمرهم، حلَق رجالٌ وقصر آخرون؛ فقال رسول الله ﷺ: "يرحم الله المحلقين"، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟! قال: "يرحم الله المحلقين"، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟! قال: "يرحم الله المحلقين"، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟! قال: "والمقصرين"، فقالوا: يا رسول الله فلِمَ ظاهرت الترحيم للمحلقين دون المقصرين؟ قال: "لم يشكُّوا".(١٢)

ب-الجهالة

ففي مقدمة الأمور التي دفعت الرسول إلى الحزن وجعلته يغضب ويتأذّى، هو مسارعة بعض المسلمين بإبداء آرائهم من دون روية -كما ينبغي- في بعض الأمور وتسبُّبهم في أخطاء. والحادثة التالية موضّحة لهذا الأمر بأحسن صورة. عن جابر ﷺ قال: خرجنا في سفر فأصاب رجلاً منا حجرٌ فشجّه في رأسه ثم احتلم، فسأل أصحابَه فقال: "هل تجدون لي رخصةً في التيمم؟" فقالوا: "ما نجد لك رخصةً وأنت تقدر على الماء". فاغتسل فمات. فلما قدمنا على النبي ﷺ أُخبر بذلك فقال: "قتلوه قتلهم الله، ألا سألوا إذ لم يعلموا، فإنما شفاء العِيِّ السُّؤالُ، إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر على جرحه خرقةً، ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده".(١٣)

فإظهار الرسول ﷺ مدى حزنه بهذه الطريقة، وتفسيره للحادثة بهذا الشكل، والدعاء على من أفتى بقوله "قتلوه قتلهم الله"، هو تهديد وتأنيب لمن يُفتي في أمور الدين دون الاطلاع على حقيقة الأمر. فقول الرسول ﷺ المذكور يدل من ناحية على عمق حزنه وتأثّره بالحادثة، ومن ناحية أخرى هو تنبيه وتحذير لمن سيكون في وضع من يُفتي بغَير علم. فليتنبه الذين يُبدون آراءهم ويقولون في أيامنا هذه في الأمور الدينية بغير علم، دون أن يكون لهم نصيب من العلم في أمور الدين، ودون الخوف من الإفتاء فيما يجهلون حكمه.

جـ-الغلظة

عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: بعثَنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة، فصبحنا القوم فهزمناهم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم: فلما غشيناه قال: "لا إله إلا الله"، فكفَّ الأنصاريُّ عنه، فطعَنتُه برمْحي حتى قتلتُه، فلما قدمنا بلغ النبيَّ ﷺ فقال: "يا أسامة! أقتلتَه بعد ما قال لا إله إلا الله". قلت: كان متعوذا. فما زال يكررها، حتى تمنيتُ أني لم أكن أسلمتُ قبل ذلك اليوم".[14]

فهذه الحادثة مختلفة عن السابقة من ناحية. فالتصرُّف في تطبيق الموضوعات الدينية ثم القضاء على حياة مسلم كما دفع الرسول ﷺ إلى الحزن، كذلك محاولة تفسير الدين من وجهة قناعات شخصية وصبّها في هذا القالب أحزنه ﷺ أيضا. أما سلوك الرسول ﷺ بهذه الطريقة نحو الحادثة المذكورة للتركيز على أن أحوج ما تحتاجه المسائل والأوضاع من اعتدال وتبجيل وتطبيق على بصيرة هو أثناء القيام بأداء الوظيفة الدينية، وأن العلاقات بين المسلمين لا بد أن تجري وفق الروح الإسلامي، وعكس هذا هو سببٌ في "الحزن".

د-الإفراط والتفريط

ومن الأسباب التي أحزنته ﷺ وأغضبته هي الابتعاد عن خط الاعتدال في اتباع السنة النبوية من خلال ابتداع مبررات لا أساس لها. فتنبيه الرسول المجتبى ﷺ في هذا الموضوع كان جادًا وذا أبعاد مهدِّدة. عن مَسرُوق أن أُمنا عائشة رضي الله عنها قالتْ: صَنعَ النبيُّ ﷺ شيئاً فرَخَّص فيه فتَنَزَّه عنه قَومٌ فبَلَغ ذلك النبيَّ ﷺ فخَطَب فحَمدَ الله ثم قال: "ما بَالُ أقوام يَتنَزَّهون عن الشيء أَصنَعُه، فوَالله إنّي لأَعلَمهُم بالله وأَشَدُّهم له خَشيةً"[15] وهناك مثال آخر في هذا الموضوع يمكن ذكره في هذا الصدد: عن أَنَس بن مالك ﷺ يقول: جاء ثلاثةُ رَهْط إلى بُيوت أزواج النبيِّ ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلمّا أُخبِرُوا، كأنّهم تَقَالُّوهَا، فقالوا "وأين نحن من النبي ﷺ قد غُفر له ما تَقدّم من ذَنبه وما تأَخّر." قال أحدُهم "أمّا أنا فإنّي أُصَلّي الليلَ أبداً"، وقال آخَرُ "أنا أَصُومُ الدّهرَ ولا أُفطِرُ"، وقال آخَرُ "أنا أَعْتَزِلُ النساءَ فلا أَتزوّجُ أبداً". فجاء رسولُ الله ﷺ فقال: "أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أَمَا والله إنّي لأَخشاكم لله وأَتقاكم له، لكنّي أَصُومُ وأُفطِرُ، وأُصلّي وأَرقُدُ وأَتزوَّجُ النّساءَ، فمَن رَغِبَ عن سُنّتي فلَيس مِنّي".[16] فمثل هذا التهديد والتنبيه هو عبارة عن حزن ذي أبعاد غاضبة.

هـ- الحزن بسبب التفرقة والاختلاف

فكل تصرف يؤدي إلى تفرقة الأمة وفقدان وحدتها كان يغمر الرسول ﷺ في حزن عميق. وأكبر دليل على هذا هو ما قاله لمسلمَين يشتجران ويدعو كل منهما عشيرته ليعينه. ونعتقد أن الأمة الإسلامية الممزَّقة اليوم إلى آلاف قطع سبب حزن له صلى الله عليه وسلم بهذا المعنى.

حزن عظماء الرجال يتناسب مع قدرهم فيكون كبيرًا وعميقًا. أما حزن سيد السادات ﷺ فهو أعظم حزن وأسماه دون شكّ. فسيّد الأنبياء ﷺ كما هو فريد في شمولية نبوته، كذلك هو متفرد في عمومية حزنه، بحيث يغمر جميع الكائنات ويشمل الناس أجمعين. فالرسول ﷺ أسوة حسنة في ضبط وموازنة جميع تصرفات المسلمين وسلوكهم ومعاملاتهم. كذلك هو قدوة في عمق الحزن ومصدره وغايته. ■

(*) جامعة مرمره، كلية الإلهيات - إسطنبول / تركيا. الترجمة عن التركية: أشرف أونن

الهوامش

(1) صلاح الدين المنجّد في كتابه "معجم ما ألف عن رسول الله ﷺ" يذكر اسم كتابَين في هذا المجال وهما: "روحانية الرسول ﷺ" لمحمد الغزالي، بيروت؛ و"حياة محمد" لعليّ عبد الجليل، القاهرة ١٩٦٤م.

(2) السيرة النبوية لابن هشام، ٢/٦١-٦٢.

(3) السيرة النبوية لابن هشام، ١/٣٢٢-٣٢٣.

(4) الشفا للقاضي عياض، ١/٢٨٨-٢٨٩.

(5) الشفا للقاضي عياض، ١/٢٨٨-٢٨٩.

(6) السيرة النبوية لابن هشام، ٤/٢٢-٢٣.

(7) الطبقات الكبرى لابن سعد، ٢/٤٧.

(8) الترمذي، المناقب ٦٩.

(9) البخاري، الجنائز ٤٣؛ مسلم، الفضائل ٦٣.

(10) البخاري، الأذان ١٢٨؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ٢/٥٣.

(11) المسند للإمام أحمد، ٣/١٣٧؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ٢/٥٤.

(12) السيرة النبوية لابن هشام، ٣/٣٣٤.

(13) أبو داود، الطهارة ١٢٥؛ ابن ماجه، الطهارة ٩٣.

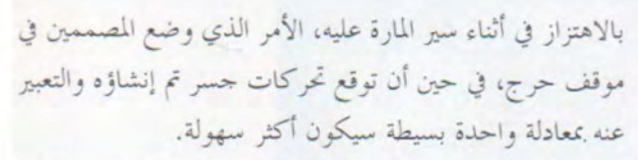
(14) البخاري، المغازي ٤٥، الديات ٢.

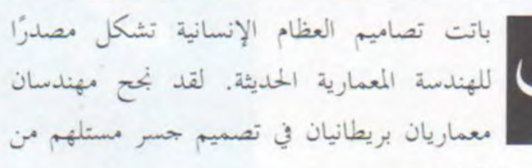
(15) البخاري، الأدب ٧٢.

(16) انظر إلى: البخاري، النكاح ١؛ مسلم، النكاح ٥.

العظام البشرية مصدر إلهام للهندسة المعمارية

أ.د. محمد سامي بولاط أُوز*





باتت تصاميم العظام الإنسانية تشكل مصدرًا للهندسة المعمارية الحديثة. لقد نجح مهندسان معماريان بريطانيان في تصميم جسر مستلهم من عظام العمود الفقري.

إن الكائنات الحية تستطيع أن ترفع الأحمال الثقيلة بمنتهى السهولة بفضل تكوين هيكلها العجيب ونظامها العظمي الخارق الذي متعها الخالق الحكيم به. "كريس ويليامز" من جامعة "باث" يقول: "ليس هناك أدنى شك في أنه لو تمت مقارنة يدِ الإنسان مع أي جهاز مُصَنَّع، فسيتضح أن هيكل اليد العَظْمِي يعمل بصورة أكثر دقّة وأرقى جودة".

إن العظام تمتلك تكوينا هندسيا في منتهى التعقيد والتركيب. الأمر الذي يضع الباحثين أمام جهد كبير للاستفادة منه في التصاميم المختلفة. بيد أن "ويليامز" وزميله "نسوغبه" قد طوّرا نموذجًا في الرياضيات أثبتا من خلاله إمكانية إنجاز منشآت معمارية تشبه التصاميم العظمية. إن "ويليامز" استطاع أن يبني جسره المركب ويعبر عنه بالاعتماد على معادلة رياضية بسيطة. فلقد كانت الجسور التقليدية تتكون من عناصر كثيرة ومختلفة في خواصها الميكانيكية؛ كما أن الثقل الذي يحْمله كل عنصر مختلف كذلك. وفي هذه الحال يصعب التكهن بالكيفية التي ستتحرك بمقتضاها هذه العناصر بعد تركيبها. فمثلا جسر "ميلنيوم" في لندن بدأ بالاهتزاز في أثناء سير المارة عليه، الأمر الذي وضع المصممين في موقف حرج، في حين أن توقع تحركات جسر تم إنشاؤه والتعبير عنه بمعادلة واحدة بسيطة سيكون أكثر سهولة.

هناك فوائد أخرى لهذا التصور الجديد؛ فإن "فينسنت" من جامعة "ريدنج" يقول: "إذا كان هناك بيان رياضي واحد لبناء بأكمله، فذلك يعني أن البيان متماسك ومتكامل إلى أقصى حدود". ومن ثم إذا كانت الأَشكال الهندسية تتغير ببطء دون أن تُبدي تغيرًا مفاجئا، فهذا يعني أن هذه الأنواع من المباني منشآت منتظمة التغيير ومتماسكة البناء. أما المنشآت التي تتعرض لتغيرات آنية ومفاجئة، فإن التمددات تتكاثف وتزداد لتكوّن مناطق ضعيفة تساعد على إسراع تحطم الخامات وتهشمها. في حين أن التغير في البناء العظمي منتظم ومتماسك ويزيد من مقاومة الكيان العظمي ومتانته، وذلك يساعد على توزيع الطاقات بشكل أكثر تجانسًا وتوازنا داخل البنية. من هنا يمكن القول بأن الأشكال الهندسية التي يتم إعداد تَصاميمَها بوحي من النظام العظمي في جسد الإنسان سوف تتمتع بنفس الأوصاف المذكورة.

إن هناك حاجة ماسة لأبحاث ودراسات متقدمة تفسح المجال أمام إمكانية نقل التصاميم العظمية إلى قطاع الهندسة المعمارية. ولما كانت هذه التصاميم شديدة التركيب والتعقيد فيجب فهم خصائص كافة الأشكال بالتفصيل، وإلا فإن التقليد الأعمى لن يؤدي إلى أي فائدة.

هذا، ومع تطور العلوم الحديثة اليوم يمكن فهم أسرار التصاميم العجيبة الموجودة في أجسام الكائنات الحية بصورة أفضل والاستفادة منها في مجالات شتى من الحياة. كما يمكن كذلك فهم العناية الربانية الشاملة والعلم الإلهي المحيط والحكمة الخارقة والصنعة البديعة المتلألئة في كل مكان. ■

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: أ.د. الصفصافي أحمد القطوري.

رائد الفكر الإسلامي الحديث



شيخ الإسلام مصطفى صبري

أ.د. عمار جيدل*

العلماء في الثقافة الإسلامية ورثة الأنبياء، لهذا يعد عملهم امتدادا لعمل الأنبياء، فينسجون وفق مسلك الأنبياء في إنقاذ مجتمعاتهم من دركات فساد الاعتقاد والأخلاق والقوانين وسائر الأحوال. والقيام بتلك الوظيفة على أكمل وجه يقتضي من العلماء استصحاب المعطى الثقافي والحضاري الذي تتحرّك فيه دعوتهم فاعلة ومتفاعلة. ولعل أصدق أنموذج معبر عن استحضار لتلك المعطيات من الناحية النظرية، العمل الجبار الذي أنجزه شيخ الإسلام مصطفى صبري رحمه الله؛ فقد كان بحق رائدا من رواد المقاومة الفكرية في المجتمع العثماني الحديث.

نبذة عن حياته

فمن هو شيخ الإسلام مصطفى صبري وأين نشأ وترعرع وتعلم، وما الأعمال التي تؤكد ما مِلنا إليه في مدخل المقالة؟

ولد الشيخ مصطفى صبري من أبوين تُركيَين في تاريخ ١٢ ربيع الأول ١٢٨٦ هـ ـ ١٨٦٩م في الأناضول بمدينة "توقاد" التي ينسب إليها. تتلمذ في بداية تحصيله العلمي على يد والده الأستاذ أحمد التُّوقادي، وأتمّ دراسته الأولية في مسقط رأسه حيث حفظ القرآن الكريم بها، ثم واصل رحلة التحصيل بمدينة قيسري، ثم انتقل بعدها إلى الآستانة ونال إجازتين. انخرط مصطفى صبري ابن الثاني والعشرين ربيعا في سلك كبار المدرسين بصفة أستاذ محاضر في جامع السلطان محمد الفاتح، بعد امتحان التدريس

بدرجة مدرس عام سنة ١٣٠٧هـ/١٨٩٠م. وقد تخرج على يديه عدد لا يستهان به من الطلبة، ويذكر أنه سلّم إجازات لخمسين طالبا. اختير بتاريخ ١٦ يناير ١٩٠٠م عضوا في ديوان القلم (أمانة السر). واختارته هيئة كبار العلماء المعروفة بالجمعية العلمية رئيسا لصحيفتها الأسبوعية التي كانت تصدرها بعنوان بيان الحق، ليعيّن بعدها عضوا في دار الحكمة "هيئة كبار العلماء"، تولى بعدها تدريس الحديث الشريف في مدرسة السليمانية. اختير نائبا عن مدينة توقاد في المشروطية الثانية بتاريخ ١ يناير ١٩٠٨م، ثم تولى في عهد وزارة الداماد فريد باشا الأول المشيخة الإسلامية سنة ١٩١٩م بناء على الإرادة السلطانية، وظل محتفظا بمنصبه في الوزارتين المتعاقبتين.

ولما ضاق به حال البلاد بناء على ما تعرّض له من ضغط وتقييد اضطر إلى الهجرة. سافر إلى مصر سنة ١٩٢٣م ومنها إلى لبنان، وبقي على تلك الحال متنقلا، فزار مكة، وعاد إلى مصر سنة ١٩٣٢ م وهذا بعد الإقامة القصيرة بتركيا.

آثاره العلمية ووقفة مع كتاب "موقف العقل"

تتوزّع آثاره العلمية على العديد من أنواع التأليف؛ ففيها الكتاب الجامع وفيها الكتاب البسيط ومنها أيضا المقالات المتخصصة. وقد ألّف باللغتَين العربية والعثمانية (التركية القديمة). وأهم كتبه: النكير على منكري النعمة من الخلافة والأمة، موقف البشر تحت سلطان القدر، قولي في المرأة ومقارنته بأقوال مقلدة الغرب، القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون بالغيب، موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين.

تضمن كتاب "موقف العقل" زبدة أفكاره وآرائه السياسية والعلمية. فهو كتاب غني بالمطارحات الفكرية المتنوعة حيث تجد المناقشات الفلسفية العالية والكلامية الدقيقة والسياسية في جانبيها النظري والعملي. والكتاب من عنوانه يدل على أن الغرض الأصلي منه هو الدفاع عن عقيدة الإسلام. والقيام بهذا العمل فرض عليه الحديث المسهب عن كثير من القضايا حيث أنه:

- كشَف المؤامرات التي تعرّض لها الإسلام من زاويتي التحدي بالسلاح من خلال هجمات الغربيين، والتحدي الفكري العقدي الذي تقوده قوى الإلحاد والفجور، فعمل بهذه المطارحات على مجابهة الفريقين.
- بيّن في كتابه قيمة الدليل العقلي مقارنة مع الأدلة التي استند إليها المثقفون الغربيون أو المتغربون. فبرهن بأن الدليل العقلي أيقن من الدليل التجريبي، ويعد النقاش في هذه المسألة تأريخا لوجودها في البيئة الإسلامية المعاصرة.
- ناقش أدلة فلاسفة الغربيين على وجود الله، كما ردّ شبه النافين من الملاحدة. وهذا الجهد يدل على إحاطته بالفكر والفلسفة الغربيين عامة بخلاف ما ذهب إليه بعض الباحثين.
- حارب الشبه المعربة عن الفكر الغربي (المترجمة)، والتي منها الاستخفاف بالدليل العقلي والاستناد الكلي للدليل التجريـبي، حتى غدا المنهج التجريبي هو المنهج الأصيل والوحيد الممثل للثقافة الإسلامية.

ولقد نشر للشيخ مصطفى صبري مقالات باللغة التركية والعربية في الجرائد اليومية، كما نشر له مقالات في المجلات العلمية في تلك الفترة. وتعد هذه المقالات على تنوّعها دفاعا عن الإسلام وإبرازا لقوته العلمية. إنه حاول إرجاع هيبة الإسلام المفقودة، وذلك ببعث قوّته العلمية والفكرية في ساحة كثر فيها العلماء المعجبون بالغرب وحضارته وفلسفته، حتى عد المنافح عن دينه وحضارة أمته نشازا يشار إليه بالبنان.

سمات مؤلفاته

القراءة الفاحصة لعناوين المؤلفات يبيّن بجلاء أننا أمام شخصية علمية نذرت نفسها لمدافعة الباطل والدفاع عن الحق في العلم والسياسة. فالعناوين المختارة دالة بنفسها على ملكة المطارحة، ويؤكد هذا المسلك القراءة الأولية لما كتبه الرجل. إن المصطلحات الموظفة في التعبير عن عناوين الكتب والمقالات تدل بنفسها على العقلية الجدلية التي يتميّز بها.

إن كتبه باللغة العربية أكبر من أن نشرحها لدلالتها المباشرة على ما رمنا بيانه في الفقرة السابقة. انظر معي لفظ "النكير"، فهو دال بنفسه على الاستنفار والإنذار والتنبيه مع شدّة في اللفظ، إنه نكير على منكري النعمة من الخلافة والأمة. وأعمل مسلك الإنكار نفسه في كتابه "مسألة ترجمة القرآن"، فقد عرضها كمسألة يراد توجيه الأنظار فيها إلى رأي مرجوح، فرام من خلال المطارحة الهادئة والهادفة إلى بيان القول الفصل في المسألة. ونسج على المنوال نفسه في كتابه "القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون بالغيب"، فحاول الفصل في مسألة كثر فيها الكلام وفق مشارب الآخر، لهذا ركب فرسه للمدافعة والمرافعة عن الغيب الذي يراد إبعاده خدمة للثقافة الغربية وانسجاما معها.



وبذلك المنهج كتب كتابه "قولي في المرأة"، إذ يدل بقية العنوان على الغرض الأصلي من الكتاب "ومقارنته بأقوال مقلدة الغرب". إنه يرمي إلى إبطال أقوال الغربيين ومقلديهم في مسألة المرأة في الإسلام.

أما موسوعته "موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين" فهو بيّن من عنوانه "موقف". فهو دفاع عن موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين ضد أولئك الذي نصبوا بينها برازخ لا تتجاوزها، بينما هم يتضافرون جميعا (العقل والعلم والعالم) في الدلالة على بطلان أقوال المنكرين والملحدين وصحة ما ذهب إليه أهل الإيمان برب العالمين.

وتتأكد النـــزعة التي أصبحت في الرجل ملكة أكسبته الاستقلال الفكري فيما قرأناه في تلك المؤلفات، إذ يصرح بأنه لا يريد "أن يقول بفكرة إن قال بها كبير أيا كان، ولا يتخلى عنها إن لم يقل بها أو قال ثم رجع عنها". لهذا تراه لا يوجّه اهتمامه إلى تحقيق رأي فلان أو علان، ويرى ذلك شأن غير الباتين في الحكم بعقولهم فيوازنون درجة المذاهب في الصحة أو الفساد بدرجة مراكز المنتمين إليها.[1] وتماشيا مع ما ذكره تراه ينقد الخطأ حيث وجده غير مهتم بمركز القائل، ينتقد الغزالي وابن تيمية وابن القيم وغيرهم من العلماء.

أما بالنسبة للعلماء المعاصرين فقد ناقش أقوال أكثرهم شهرة كالشيخ جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وشلتوت... وبالدرجة نفسها التي ناقش بها فلاسفة الغرب كباركلي وهيوم وكنط... وقد سبب له هذا النقد كثيرا من الحرج والمتاعب، فقيل له "كيف تنقد هؤلاء الأعلام؟" فقال "إن كتابي كتاب مبادئ لا كتاب تراجم".[2] إنها كلمة رائعة يجب أن تكون قانونا يعمل به في تمحيص الأفكار والآراء بصرف النظر عن أصحابها ومراكزهم.

جهوده العلمية

المتتبع لعناوين كتب الشيخ مصطفى صبري يدرك أن المقصد الأساسي من مؤلفاته هو الدفاع عن الإسلام والعلوم الإسلامية بصفة عامة، وذلك بصد الهجمات التي تعرّض لها من قبل أبنائه، وخاصة تلك التي تلبّست بالإلحاد القائم على المبادئ المادية في العلوم أو التي قامت على المبادئ القومية في الجانب السياسي.

لهذا انصبت جهوده على محاربة العقليات السائدة في الوسط الثقافي والسياسي، وعلى رأسها محاربة العقلية الآيلة إلى الإلحاد في البيئة الإسلامية المعاصرة. وأصل هذا الداء -في رأيه- الذي ساق المتعلمين الجدد إلى الشك المنتهي إلى الإلحاد اعتقاد أنه "لا يثبت وجود الله علميا، لأن العلمية ربطت بالثبوت التجريـــبي الحسي وفق ما ثبتت به سائر المعارف والعلوم في العلم الحديث، وهذا لا يَعتدّ بالدليل العقلي لعدم إمكان سلامته من الخطأ، وبالتالي لا يمكن الوثوق به"، فنجم عنه تسرّب أمراض خطيرة إلى بيئتنا الإسلامية، لعل أهمها:

- عدم الاستناد إلى الأدلة النقلية، وترتب عليه إنكار مسائل غيبية ثابتة، واضطرهم هذا إلى التأويل مسايرة للعلم الحديث، حتى غدا التأويل المتعسّف مسلكا لدى كثير من أعلام هذا العصر، وقد كان محمد فريد وجدي أكثرهم غلوا ومسايرة للعلم الوضعي (التجريـــبي الحسي).
- عدم التعويل على الأدلة العقلية في إثبات واجب الوجود، وحصرت الأدلة في العلم الحديث المبني أساسا على قاعدتهم المشهورة "كل معقول لا يؤيده محسوس لا يعتد به"، رغم كون القاعدة مبطلة لنفسها بنفسها لأنها "معقول لا يؤيده محسوس"، فنجم عن ذلك إهمال المنطق والعلوم التجريدية، وحصرت الثقة في المحسوس، وهذا ما يفسر الهجمات التي تعرّض لها علم الكلام.
- الفصل بين الدين والسياسة؛ وقد خُدم هذا المبدأ بطريقتين اتخذت أولاهما الطريقة المباشرة كالمحاولة التي قام بها الشيخ علي عبد الرازق؛ وسلكت الثانية طريقا غير مباشر من خلال إخراج الفقه من دائرة الدين وفق ما ذهب إليه الشيخ محمد مصطفى المراغي، ويقرب منه قوله بجواز التعبد بالقرآن المترجم.
- ظهور محاولة إنقاذ الدين من العقل وفق ما قام به الفيلسوف الغربي "كنط" حينما أقام دليل العقل العملي على وجود الله (دليل الأخلاق). ومبنى هذا الرأي التأسيس للعقيدة المسيحية التي لا تتلاءم والعقل، لهذا عدت محاولة النسج على منوالها متجاوزة لكل مسلمات العلم، إذ تختلف الديانة الإسلامية عن الديانة المسيحية المحرّفة في أساسهما العقدي. فأساس الأولى الفصل بين عالمي العقل والقلب الذي من مهماته العقيدة والإيمان، بخلاف ما هو عليه الإيمان في الإسلام، فهو

موجّه إلى العقل في اللحظة نفسها التي يتوجّه إلى الوجدان.
وقد رام تحقيق هذه المهمة المستعصية الشيخ فريد وجدي، فحاول إقامة البرهان على وجود الله تعالى دون الاستناد إلى الدليل العقلي[٣]، وهي محاولة لا يمكن أن تنجح ولا ينبغي لها أن تنجح، وإن نجحت فإنها من قبيل الغلطة الناجحة، لأنها متصورة في المسيحية وغير متصورة في الإسلام.[٤] فالمسيحي يضطر إلى إهانة عقله ليسلم له دينه، وكذلك الحال بالنسبة للملحد الغربي والشرقي، فإنه يضطر إلى الاستهانة بالدين ليسلم له عقله. والمسلم بخلاف ذلك تماما؛ فالعقل والدين لا يفترقان حتى غدت عند المسلمين قاعدة مشهورة "من لا عقل له لا دين له".

- تسرّب ضلال الاستخفاف بالعقل، وتأصّل ذلك بانتشار المذهب التجريبي وبناء العلم عليه بعد الفيلسوف بيكون، فطبق المذهب التجريبي بطريق الفلسفة الوضعية على العقائد، وقد زاد الأمر شناعة شيوع تقليد كل ما وفد إلينا من الغرب أو صدّروه إلينا.[٥]

وفي ضوء ما سلف حصر الشيخ مهمته فيما يأتي:

- مكافحة الشبهات ومكافحة مروجيها والكشف عن المكامن التي يتستر المثيرون لها، حتى يتزعزع مكان الشبهات ومكانة مثيريها في قلوب الناس كائنين من كانوا، "فتنهار الشبهات ومروجوها وتسلم عقيدة المؤمنين من شرورهم وتساؤلاتهم".[٦]
- الدفاع عن مركز علم الكلام وإثبات صدقه وصحة استثمار معارفه، والسعي إلى إثبات أن وجود الله لا يمكن أن يستند إلى الدليل التجريـــبي الجزئي الذي فتنهم، ولا يكون بغير الدليل العقلي، لأن الدليل العقلي أقوى وأيقن من الدليل التجريـــبي.
- محاربة اللادينيين بالقضاء على كل شك يرمون إلى تكريسه بطريق الإلحاد. وبهذا الصدد عمل على شحذ الهمم وتنبيه العقلاء إلى خطر تسرب العقليات الغربية المناوئة للدين إلى أذهان المثقفين المسلمين، ويتطلّب هذا الجهد سرد شواهد من كلمات رجال يستدل بأهمية مراكزهم الرسمية والأدبية على أهمية المسألة[٧]، لهذا اضطر إلى تفحّص أقوال وأفكار الفلاسفة الغربيين وأيّد رأيه بكثير من أقوالهم وتصريحاتهم.
- حاول بيان المرض العقلي الذي هيمن على العقليات في مصر الحديثة نظرا لخطورته البالغة، إذ يرجع إليه حسب تقديره سبب هلاكها في الدنيا والآخرة إن بقي الأمر على حاله.[٨]
- الدعوة إلى إصلاح الأوضاع العلمية في العالم الإسلامي، بصفته الطريق الوحيد للنجاح السياسي والاجتماعي في الحاضر والمستقبل.

موقفه من الهجمة المنظمة على العلوم الإسلامية

عمل الشيخ على عدة جبهات لمدافعة الهجمات التي تتعرض لها العلوم الإسلامية إرضاء للفكر الغربي الحديث، وبهذا الاتجاه قام بجهود جبارة في المطارحات الإعلامية والسياسية والتعليمية، وتجلى هذا المسلك في الجهود الآتية:

- العمل على بيان الخلل الطارئ على العقلية الإسلامية وخاصة في تسليم زمام أمورها إلى الفكر الغربي ممثلا في الفلسفة الغربية ولاسيما الوضعية. وقد سعى جاهدا في هذا الجانب إلى بيان بطلان أساس ما تبنى عليه هذه الفلسفة، فبيّن الفرق بين الدليل العقلي التجريدي والدليل (العلمي) التجريـــبي، فبرهن على تفوّق الأول على الثاني، بل أساس دلالة التجريـــبي مبنية أساسا على الدليل العقلي في مرحلة من مراحل الاستدلال أو تبليغ الدليل.
- ناضل حاملي الفكر الغربي في البيئة الإسلامية فحاول قطع الطريق على أولئك الذين حاولوا التعامل مع الثقافة الإسلامية من منطلق الفكر الوافد، وكأن الثقافة الإسلامية عارية عن كل أصالة وقوة إقناع.
- دافع الشيخ عن الخلل المتوقّع من تصريحات بعض كبار أعلام المسلمين في العصر الحديث، فدافع عن معجزات الأنبياء بوصف إنكارها طريقا معبّدا لإنكار كل ما له صلة بعالم الغيب الذي منه عقائد المسلمين، وما ركب ذلك إلا خوفا من استشراء هذا الداء العضال في أوساط الأمة، فإنه إن تمكّن منها سيأتي على الأخضر واليابس.
- دافع عن موقع الفقه في الشريعة الإسلامية والدين الإسلامي عموما، خوفا من يأتي اليوم الذي لا ندري فيه كيف نعبد الله، وخوفا من أن يصبح الفقه ليس من الدين على قول بعض العلماء المعاصرين.

- دافع عن الحديث النبوي ضد أولئك الذين اختصروا الحديث الصحيح من الكتب المدونة بنسبة الواحد من مائة وخمسين حديثا، بناء على تفسير خاطئ لقول البخاري بأنه لم يصح عنده إلا أربعة آلاف حديث من ستمائة ألف حديث، فراموا تطبيق القاعدة على الأربعة آلاف حديث التي استخلصت من الستمائة ألف حديث. ونظرا لبطلان هذه الأفكار، بل ولحملها بذرة الفناء فيها، فقد أفل نجمها وقبرت إلى غير رجعة وعادت للسنة مكانتها في البيئة الإسلامية المعاصرة.
- دافع من منطلق معرفي عن وضع المرأة في الإسلام، وناقش ما يهيأ من قوانين وتصورات يراد فرضها على الأمة. فكشف بأسلوب رائع أصل الداء الذي حاولوا تسويقه في مجتمع النساء، وأرجع الداء كله إلى تقليد الغرب حتى في أوضاعه التي لا يحسد عليها، فأريد تحويل المرأة إلى سلعة تتداول وتتقاذفها الأجسام الآسنة ذات الروائح الكريهة أولئك الذين لخصوا وجود النساء في المتعة واللذة ففقدوا إنسانيتهم وأُسروا لشهواتهم.
- أرجع الخلل في الإعجاب بالغرب في السياسة إلى الخلل في التكوين الثقافي. فالمسألة السياسية ترجع أساسا إلى خلفية ثقافية يجب أن يبدأ الإصلاح منها. فالإصلاح الثقافي أصل الإصلاح السياسي، لهذا رتّب الشيخ الأولويات في بداية عهده بمدافعة العمل السياسي الأعوج الأعرج الذي يراد فرضه على البيئة العثمانية الجديدة، ولكن لما يئس من نجاح محاولات الإصلاح السياسي المباشر سواء بطريق الحوار والمطارحة الفكرية، تأكد أنّنا إنما لدغنا من جهة الثقافة والتكوين الدقيق في العلوم الإسلامية. ومن ثمّ مال إلى طريق الإصلاح العلمي بالتأليف والنصح المستمر للمسلمين وعلمائهم. وأكبر شاهد على ما ذهبنا إليه آخر كتبه تأليفا كتابه "موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين". فقد بيّن وبما لا مزيد عنه أن مشكلتنا ثقافية بالدرجة الأولى، ويجب تعهدها بالإصلاح والتنبيه والتيسير في كل الأوقات.

أقوال العلماء عنه

تكاد تتفق كلمة الباحثين المعاصرين على أنّ الشيخ مصطفى صبري نسيج وحده لا مثيل له بين بني عصره. فقد ظهرت ميوله إلى العلوم العقلية من كلام وفلسفة ومنطق وما شاكلها من معارف منذ الصغر، يؤكد ذلك قوله عن نفسه: "الاجتهاد في العلوم العقلية يلتئم مع فطرتي ومزاجي والتي لا يبتعد عنها علم أصول الدين"[9]، لهذا عرف بين أهل الاختصاص بسعة الاطلاع والقدرة الفائقة على المناظرة.

قال عنه محب الدين الخطيب "فحل الفحول الصائل الذي يعد فضله أكبر من فضل معاصريه"[10] لأنه دافع عن الإسلام في أيام كان فيها الانقضاض على الإسلام باسم الإسلام وبمباركة علمائه. وقال عنه الشيخ زاهد الكوثري "قرّة أعين المجاهدين"، وقد مدحه الشيخ عبد الفتاح أبو غدة قائلاً "إن كتابه موقف العقل هو كتاب القرن بلا منازع"، وقال الشيخ البوطي عن كتابه آنف الذكر "هو كتاب لا مثيل له".

جوانبه الأخلاقية

عانى شيخنا رحمه الله طوال حياته من الفقر الذي كان به فخره؛ فقد عاش فقيرا ومات على تلك الحال غير آبه بجمع حطام الدنيا. وأكبر شاهد على ما ذهبنا إليه اضطراره إلى بيع كتبه ليحصل على ثمن تذاكر سفر من الدرجة الثالثة بالباخرة له ولسائر أفراد أسرته، وذلك من الآستانة إلى الإسكندرية، وهذا رغم توليه منصب "شيخ الإسلام" لسنوات عديدة.

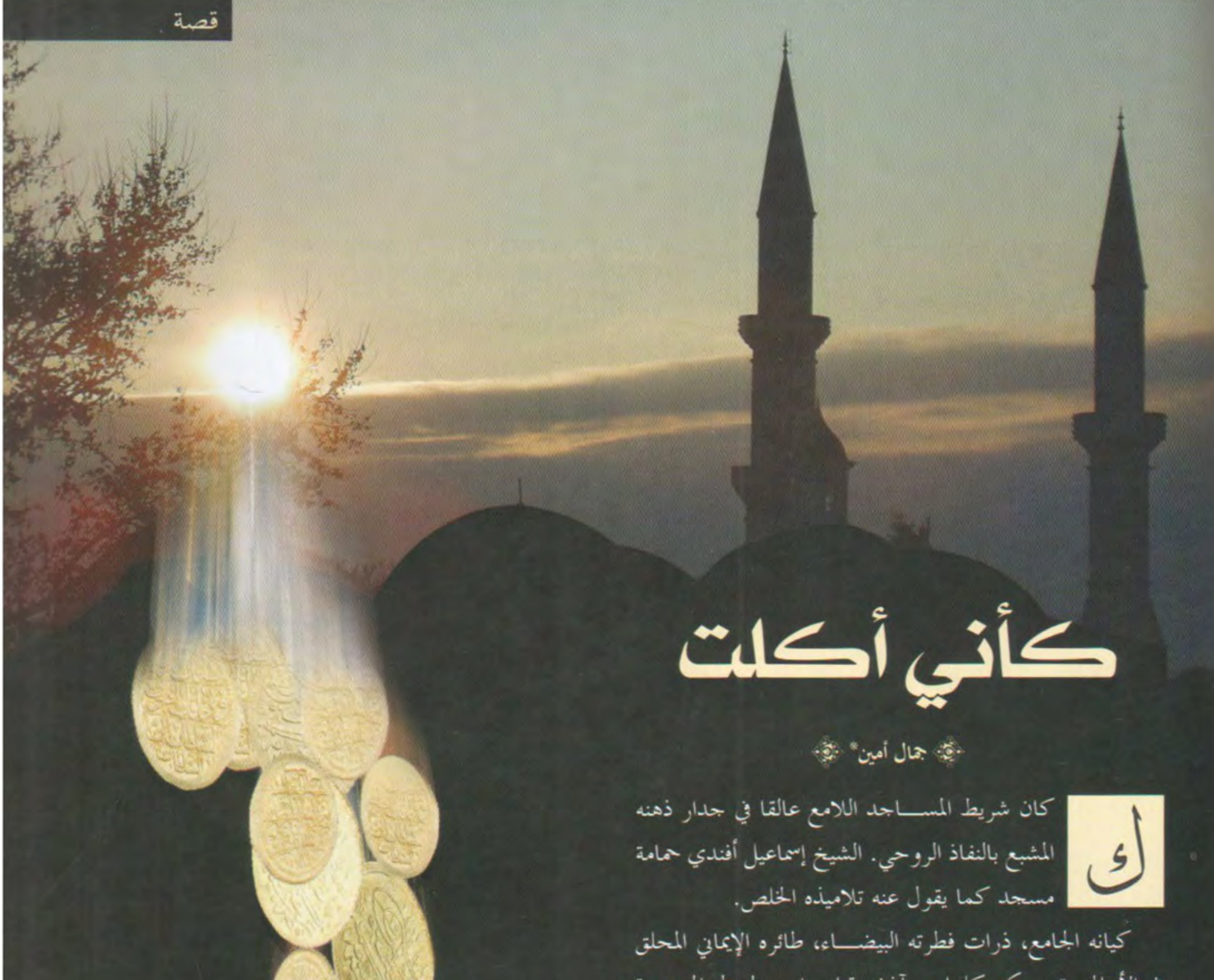
وكانت شجاعته مضرب الأمثال بين علماء عصره؛ فقد حارب الاتحاديين وعلماء الدين المتغربين، ولحقه من جراء ذلك أذى كبير من قبل المثقفين والساسة. وقد عمل طوال حياته على تغيير الوضع نحو الأفضل، وقد زاد نشاطه منذ أن أحس بالخطر المحدق بالدين الإسلامي في العالم الإسلامي، وبقي على ذلك المنهج غير متزعزع أو مستجيب لترغيب أو الترهيب.

غادرنا الشيخ مصطفى صبري رحمه الله إلى عالم الخلود من الأنبياء والشهداء والصالحين بمصر ٧ رجب ١٣٧٣هـ الموافق ٢ من مارس ١٩٥٤ م. رحم الله شيخنا وأجزل مثوبته، ونفعنا بتجربته وأفادنا من علمه، إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير. ■

(*) جامعة الجزائر المركزية / الجزائر.

الهوامش

(1) موقف العقل، ٣/٩٢، ٤/٣٨٦.
(2) المصدر السابق، ٤/٣٨٦.
(3) أنظر: موقف العقل، ١-٦٨، ٤٠٦.
(4) موقف العقل، ٢/١٥٧.
(5) المصدر السابق، ٢/٣٢٣.
(6) المصدر السابق، ١/٤٤.
(7) المصدر السابق، ١/٤٤.
(8) المصدر نفسه، ١/٦٦.
(9) المصدر السابق، ٤/٣٨٧.
(10) مقال محب الدين الخطيب، مجلة الفتح الإسلامي، العدد ١٩٤.



كأني أكلت

جمال أمين*

ك

كان شريط المساجد اللامع عالقا في جدار ذهنه المشبع بالنفاذ الروحي. الشيخ إسماعيل أفندي حمامة مسجد كما يقول عنه تلاميذه الخلص.

كيانه الجامع، ذرات فطرته البيضاء، طائره الإيماني المحلق في الأعالي، تسكن كلها مآذن وقباب إسطنبول المتوهجة بالندى والطهر. المساجد السلطانية العملاقة تستبطن أحاسيسه الدافئة... أذانها المطلول المبغوم... ابتهالاتها الندية المتموجة... تراتيلها المعرشة بالألحان المرشوشة الغضة. ويلج باحاتها الفسيحة مدَّ البصر، بواجهاتها الرخامية المصقولة، فيتوثب قلبه الرهيف، وتتلبسه أحاسيس سلطانية عظيمة، لعظام بناة، وسواعد متوضئة، ومحاميل حجارة منتقاة بعناية، و"سنان" المعلم العظيم يرشها بلمسات فنه الساحر المتكلم.

كان يسبح بباصريه مذهولا وهو يلج الصدفات المكنونة بسر السماء، وتمتصه محاريبها الفارهة... أعمدتها الأسطوانية الرابضة... قبابها الأهرامية السماوية... لغات كثر تناجي قلبه المدهوش... تنبعث بنمنماتها الساحرة: الضوء المتكسر المشعث المتماوج، اللون الطاووسي السابغ، الخط المعشوشب الفتان، الزجاج الفسيفسائي المزركش، رجلاه لا تقويان على حمل عراجين عشقه المتهدل "بالدهش" و"العطش". كم قضى ليالي قمراء في باحة مسجد "الفاتح"، قرب الضريح الرخامي الجاثم في ظلال الشجر الفينان، يستل أحلامه المتوثبة، يناجي عرائسها المخبوءة.

إن ما يقلقه ويمضه هو ضيق ذات يده، وانحباس حياته في دارة العطايا النزرة المتقطعة. منذ نزوحه المبكر إلى إسطنبول رفقة شيخه الروحي وهو يعيش في ظلال التكايا والزوايا، بين همهمات الذاكرين، وتوسلات الزائرين، ورباطات المريدين، إلى أن ورث (سر) المشيخة الروحية بزاويته المتواضعة، فازدادت أعباؤه أثقالا من إشراف على مواسم تعبدية خاصة، واستقبال للعطايا والهبات المتنوعة، واحتفاء بالضيوف والزوار الوافدين،